٢٤٦

HARLEQUIN

روايات احلام

عروس تنتظر الدموع

جانيل دينسون

www.elromancia.com

مرمورية

عروس تنتظر الدموع

كانت تبدو في ثياب عرسها، أشبه بماسة متألقة بين ماسات زائفة باهتة...

لكنها عروس ضائعة، وحيدة... وبلا عريس! لذلك لم يجد غاريت بلاكويل خياراً إلا أن ينقذها من الخطر المحدق بها!

كان على جينا أن تشكره، ولكن خوفاً آخر اقتحم قلبها بعد أن وجدت نفسها في حماية هذا الرجل الجذاب والقوي... فهي لم تكن مستعدة لمشروع زواج آخر بعد أن هربت يوم عرسها، ولم تكن مستعدة بشكل خاص لفضح سرها...

١ ـ العروس الهاربة

كان للعروس وجه ملاك وجسدها جسد إلهة، يلفّه قماش أبيض متألق ينتشر حولها. ضاعف تناقض البياض الناصع مع هذا المكان الذي يدور فيه المرح ليلة السبت، ردة فعل غاريت بلاكويل الذي جلس على المقعد المرتفع عند المقصف فلم يكن الوحيد الذي يحدّق إلى تلك العروس الجالسة وحدها في الغرفة الصغيرة القائمة في الزاوية البعيدة من المكان. كان المكان يهتز بالموسيقى الصاخبة والمشاحنات والمناقشات والضحكات المدوّية، ولكن يبدو أن الجاذبية الرئيسية هي لتلك السيدة ذات الثوب الأبيض. كانت النساء ينظرن إليها بفضول وتأمّل، بينما كانت نظرات الرجال تنم عن الرغبة في أخذ مكان العريس الخالي.

لم يستطع «غاريت» أن يلومهم. فهي امرأة تدير الرؤوس... امرأة من النوع الذي يدفع الرجال إلى ارتكاب الحماقات لأجلها. عيناها كبيرتان زرقاوان، شفتاها ممتلئتان، وبشرتها صقيلة لا عيب فيها، تتألق دفئاً. أما شعرها فبلون القمح وقد تكوّم فوق رأسها بينما تساقط نصفه في خصلات أحاطت بوجهها وانسدلت على ظهرها بشكل فوضوي. كان ثوبها المكشوف عند الكتفين يبهر الأعين باللؤلؤ والترتر المتناثرين على صدره وصولاً إلى خصرها النحيل. وتخيّل غاريت أن ساقيها طويلتان

رشيقتان تتناسبان مع جمالها . . .

ـ إنها ملفتة للنظر، أليس كذلك؟

والتفت غاريت إلى «هارلان»، الرجل الضخم الذي يعتني بالمقصف والذي كان يرتدي قميصاً قطنياً قد ثنى كميه إلى ما تحت المرفقين مباشرة وبنطلون جينز رثاً شدّه بعلاقتين.

ـ يبدو أنها امرأة تائهة إذ لا يمكن لمن كنّ بمثل أناقتها ممن صقلتهن المدينة أن يأتين بإرادتهن إلى بلدة صغيرة مثل «دانبي» هذه، في ولاية «ميسوري»، إلا إذا كن تائهات. من تكون هذه، على كل حال؟

ـ يا ليتني أعلم.

ـ يبدو أن لا أحد يعرفها أو يعرف المكان الذي جاءت منه. لم يرها أحد في دانبي قبل الليلة. إذ كيف لرجل أن يرى مثل هذا الوجه والجسم الرائع وينساهما إذا كنت تفهم ما أعنيه.

وكان غاريت يعلم بالضبط ما يعنيه هارلان. فهو ليس بحاجة إلى أن يلتفت لكي يتذكر منظرها، وذلك الشعر الذي يمكن أن تضيع يدا الرجل فيه. أو يشعر بتلك المشاعر التي أخذت تؤثر على رجاحة عقله سأل الرجل:

ـ وأين العريس؟

فأجاب هذا وهو يغسل الكؤوس القذرة:

ـ لم أر أي عريس، رغم أنني رأيت عدة فتيان يعرضون عليها الزواج الليلة هنا. كانوا يحومون حولها بشكل مزعج كما الذباب على ذيل الحصان.

وهز هارلان رأسه بقلق فبدا كأب لثلاث فتيات مراهقات يقتربن من سن الخروج مع الرجال.

ـ اضطررت في النهاية إلى أن أطلب منهم أن يبتعدوا عنها ويتركوها

وشأنها، فقد بدا أنها غير راغبة في ذلك النوع من الصحبة.

لاحت ابتسامة على زاوية فم «غاريت» لأن «هارلان» الذي يبدو ويتصرف بفظاظة الدب الأمريكي المتوحش، كان شهماً وحنوناً. كان يدير محله بكفاءة ولا يحرم شخصاً من قضاء وقت ممتع، ولكنه معروف بين زبائنه بأنه لا يحب المشاكل في حانته، أو أن تتطوّر المناقشات إلى مشاحنات. وأنه يعتني بزبائنه أشدّ اعتناء. . . .

كهذه العروس التي لا عريس لديها.

وانتقل هارلان إلى الطرف المقابل من المقصف ليلبي طلبات الزبائن، فعادت نظرات غاريت تقع عليها مرة أخرى. هي مخلوقة خلاّبة، تزيدها غموضاً الظروف المبهمة التي أحضرتها إلى دانبي وإلى حانة (ليجر بوينت) هذه حيث تبدو في غير مكانها الطبيعي. بدت بملابسها هذه كأميرة من الجن، تتميز بجمال طبيعي مذهل بقدر ماهو مثير، فهي أشبه بماسة متألقة، بين ماسات زائفة باهتة. إنها غريبة عن هذا المكان، فطابع المدينة مرسوم على ملامحها.

وعندما عاد هارلان، سأله غاريت:

ـ من أحضرها إلى هنا؟

ـ سائق سيارتها الليموزين.

فقطّب غارين جبينه: «لم أر سيارة ليموزين أمام الحانة».

ـ لقد غادر الرجل منذ مدة، بعد أن تبعها بحقيبة ملابس. ثم قال لي إنها طلبت منه التوقف هنا، لكن الوقت الذي اتفق معها عليه انتهى فأخبرني أنه سيرحل وأنها وحدها.

ـ أهذا كل ما قاله؟

ـ لقد تمتم قائلاً إن عليه أن يعود إلى سانت لويس. ولهذا افترضت أنها قادمة من هناك.

لكن هذا لم يوضح الكثير.

وتنهد هارلان قائلاً وهو يتكىء على المقصف:

ـ أريد منك خدمة، يا بلاكويل.

فرفع هذا حاجبيه ممازحاً:

ـ لماذا يتملكني شعور بأن ما ستقوله لن يعجبني؟

فقال الرجل متذمراً:

ـ آه، دع المزاح، كل ما أريده منك هو أن تذهب إلى تلك السيدة وتسألها عمّن تريد أن نستدعي لها ليقلّها.

كان الطلب سهلاً واضحاً، لكن غاريت لم يشأ أن يهبّ لنجدة الفتيات اليائسات، خصوصاً بعدما حصل له مع تلك المرأة التي أنقذها فاستغلت شهامته واستغفلته بشكل غيّر مجرى حياته.

ولا بد أن أفكاره المتجهمة انعكست على ملامحه لأن هارلان قال بسرعة:

ـ أنا واثق من أن صفاً من المتطوّعين سيهبّون لإسدائي هذه الخدمة، لكنني أظن أنهم سيستغلون حالتها الذهنية ليعرضوا عليها أموراً لا ترغب فيها.

عبس غاريت، إذ لم ترسم له كلمات هارلان صورة جميلة. اللعنة على كل ذلك... لقد قصد هذه الحانة لكي يرتاح ويرفه عن نفسه وليتبادل بعض الأحاديث مع هارلان وأولئك الذين كانوا أصدقاء أبيه الحميمين قبل وفاته. البرنامج الممل نفسه مساء كل سبت... بعكس عطلات أخيه الأسبوعية التي يقضيها في الحفلات يسهر ويمرح مع النساء ومع أصدقائه.

أخوه «ريلان».. وإذ رأى في هذا مخرجاً من نوايا هارلان الطيبة، راح يبحث عبر ضباب دخان السجائر في الحانة، عن رأس أسود الشعر وابتسامة سريعة ظريفة فيجد أخاه الأصغر. ثم قال:

ـ لِمَ لا تبحث عن «ريلان» وتطلب منه القيام بذلك؟

على الرغم أن ريلان يحب مصاحبة الجنس اللطيف، وأنهن يحُمن دوماً حوله كالنحل حول العسل، إلا أنه لم يستغل امرأة قط. فالشرف والإحترام اللذان أنشأتهما أمهما عليهما، كانا متجذرين فيهما. لكن غاريت كان يشكّ في أن أمهما شارلوت بلاكويل كانت تتوقع ذلك الثمن غير المعقول الذي اضطر ابنها الأكبر إلى دفعه ثمناً لشهامته.

وكانت ابنته ذات الثمانية أعوام تذكره دوماً بتصرفه النبيل ذاك. وبأن والدة «تشيلسي» لم تشعر نحوه بالمسؤولية نفسها أو بالوفاء الذي شعر هو به نحوها، ولا نحو الطفلة التي لم تهتم بها قط. وقال هارلان:

ـ لقد غادر أخوك مع «إيما سنتري» منذ ساعة ولا أظنه سيعود.

لم يدهش هذا غاريت. فهو يعيش مع أخيه في المنزل نفسه الذي استلمه من أمه عندما انتقلت إلى «لووا» منذ أربع سنوات لتعيش مع أختها.

لكن «ريلان»، الذي كان في السادسة والعشرين، يذهب ويأتي كما يحلو له. وغالباً ما كان يمضي عطلاته الأسبوعية خارج المنزل. ولم يكن غاريت يهتم للعلاقات التي يقيمها ريلان طالما أنه يبقى بعيداً عن المشاكل..

ـ ماذا عن «أوتيس»؟

قال غاريت هذا وهو ينظر إلى رجل جالس في آخر المقصف.

ـ إنه رجل طيّب ويمكنه القيام بذلك مثلي تماماً.

فأجاب هارلان وهو ينظر إلى الرجل.

ـ إنه رجل شهواني. انظر إليه كيف يحدّق إليها ببلاهة ويكاد لعابه يسيل من فمه، أتظنه حقاً قادراً على النطق بجملة مفهومة وهو يبدو مربوط اللسان بهذا الشكل؟

لم يستطع غاريت أن يمنع نفسه من الضحك. وعندما أخذت نظراته تتفحص الرجال الجالسين على الموائد القريبة من مائدتها، أدرك أن

«أوتيس» ليس الوحيد المفتون بهذه العروس المثيرة، واستغرب أن يكون لامرأة واحدة مثل هذا التأثير على كل أولئك الرجال.

وعاد هارلان يقول له وقد بدا عليه الضجر:

ـ بحق الله، يا بلاكويل، أنا لا أطلب منك أن تتزوج تلك الفتاة. لقد تأخر الوقت. فإذا كانت تسكن في «سانت لويس» فإن من يأتي ليقلّها سيستغرق في الطريق أكثر من ساعة.

ـ حسناً. لأجلك سأفعل هذا يا هارلان.

قال ذلك بعد أن شعر بالذنب لعدم رغبته في القيام بهذه الخدمة البسيطة لصديقه.

فابتسم هارلان ببطء وهو يغمز بعينه. وألقى غاريت بكلمة تذمر أخيرة لم تجعل هارلان يغير رأيه. ثم توجه نحو المائدة الجانبية. كلما أسرع في تأدية هذه المهمة القصيرة المحرجة، كلما تمكن من العودة إلى استئناف سهرة ليلة السبت هذه.

أخذت العيون تتبع خطوات غاريت وهو يسير نحو الفتاة، فشعر بالضيق لنظراتهم ولتوقف الأحاديث بينهم وهو يمر بين الموائد. كانت هي المرة الأولى التي يقترب فيها غاريت بلاكويل من امرأة في حانة ليجر بوينت.

فقد عُرف عنه أنه لا يتوجّه إلى نساء «دانبي» بأكثر من إيماءة مهذبة أو تحية. والجريئات منهن اللاتي حاولن ملاحقته قد ردّهن بلباقة قدر الإمكان مهما كانت عروضهن مغرية.

لم يكن غاريت زير نساء، لكنه أيضاً لم يكن راهباً.

إنما النساء القليلات اللاتي أنشأ معهن علاقات خلال السنوات الماضية، كن يعشن في مدن أخرى لا تصل إليها الأقاويل والتخمينات ولا إلى أسرته. والنساء اللاتي خرج معهن كن يعلمن ويقبلن حقيقة أنه غير جاد في علاقاته. فهو لا يريد أن تحتال امرأة على مشاعره مرة

أخرى.

نبذ غاريت هذه الأفكار وتنفس بعمق ثم فضّل أن يدخل الغرفة الصغيرة حيث كانت تجلس العروس، بدلاً من أن يقف عند حافة المائدة ليقوم بمهمته. أتاحت له هذه الغرفة الصغيرة قدراً من الإنفراد بالمرأة بعيداً عن العيون الفضولية والآذان المتلصصة. فآخر ما كان يريده هو إحراجها، أو توفير التسلية لأولئك الزبائن.

كان يبدو عليها الحزن والضياع والاضطراب وعندما اشتبكت ساقاه المكسوتان بالجينز بتلك الكومة الحريرية البيضاء من ثوبها تحت المائدة، رفعت نظراتها مجفلة لظهوره المفاجيء.

فتح فمه ليتكلم وإذا بلون عينيها يسمّره في مكانه. بدا له من بعيد أزرق. ولكن عندما أمعن النظر فيه وجده مذهلاً... كان ناعم الزرقة يحفّ به لون الياقوت الأزرق هذا إلى خطوط ذهبية ضئيلة ممتدة إلى الوسط. أمّا أهدابها فطويلة كثيفة، وحاجباها مقوسان. وجذب نظراته جمال شفتيها الممتلئتين الناعمتين «وشامة الحسن» المغرية التي تعلوهما. وبالرغم مما يوحيه ثوب الزفاف هذا من براءة ونقاء، كان يحيط بها جوّ غامض طبيعي من الغواية كانت مزيجاً متناقضاً من الصدق والصراحة والغواية التي تثير اهتمام الرجل. ومع ذلك شعر غريزياً بأنها لا تدرك فتنتها هذه، ولا تعرف تأثيرها على الرجال. لم تكن تتباهى بنفسها أو تلعب دور العابثة اللعوب لتجذب الإنتباه فهي ليست بحاجة إلى ذلك. لقد منحها الله هذه النعمة، أو النقمة، فهذا يعود إلى تقديرها هي، نعمة جمال الوجه والقوام والتألق الطبيعي المنبعث منها.

وقعت عينيها إلى وجهه بطريقة ساحرة، إنما خالية من كل مكر أو نيّة، ولكن حركتها هذه لفتت انتباهه وجعلت الدم يسري حاراً في عروقه.

وشعر فجأة بأن لسانه ينعقد وارتسمت ابتسامة حلوة على شفتيها

المغريتين، لكنها لم تمحُ ظلال الأسى في عينيها. أسدلت جفنيها وهي تريح ذقنها على راحتها، وتنظر إليه حالمة.

ـ مرحباً.

نطقت بهذه الكلمة بآهة بحّاء التفّت حول حواسه تدغدغها.

تنحنح، مرغماً نفسه على مراقبة سلوكه:

ـ هل أنت بخير... يا سيدتي؟

ـ أنا... بأتم خير... أنا... بحالة ممتازة.

قالت ذلك ببشاشة. كانت في حالة يرثى لها وأقرب إلى اليأس الذي يحيط بشجاعتها الزائفة. وسألها:

ـ ما رأيك بفنجان قهوة؟.

قطبت حاجبيها مفكرة في سؤاله، ثم تثاءبت مرتخية الأهداب.

ـ نعم. أظن أن بإمكاني تناول بعض القهوة. وليكن فيها الكثير من القشدة والسكر. لا أريد المزيد من هذا الشراب... إنه يجعلني... نا... عسة.

وضحكت بصوت خافت لطريقة حديثها، ثم عادت تقول:

ـ أعني متعـ... بة.

كبت ابتسامة عريضة، ثم أشار إلى النادلة، وطلب منها إرسال فنجان من القهوة الثقيلة السوداء. وعندما عاد ينظر إلى العروس، رآها تحاول إزاحة خصلة شعر ثائرة تدلّت وجنتها، وقد بانت على وجهها نظرة اشمئزاز، وهي تقول بقنوط:

ـ أنا أكره شعري الجعد، فخصلاته تعاندني وتعاكسني على الدوام. هل تعلم بأنني في طفولتي كنت دوماً أتمنى لو كان شعري أملس مستقيماً؟

ـ آه، لا.

وكيف له أن يعرف مثل هذه الأمور الشخصية عنها وهو لم يقابلها

قبل هذه الليلة؟

أسبلت جفنيها، وعندما ظنها غرقت في النوم، تكلمت بصوت حزين ناعم:

ـ في أعياد ميلادي، كنت أطفىء الشموع الموضوعة على قالب الحلوى، وأتمنى أن يصبح شعري أملس كشعر صديقتي سيندي. ولكن أمنيتي لم تتحقق قط.

نظر إلى الخصلة الطويلة اللامعة التي كانت تشتمها، وقد أسرته هذه الخصل الملتوية الطبيعية وكيف يمكنها أن تلتف على أصابعه... أو أن تلمع كالذهب تحت أشعة الشمس.

فتحت عينيها بعد لحظة، وقد بدا العجز البالغ في أعماقها. وبما أنه لم يعرف ما ينبغي أن يجيبها رداً على حديثها الغريب لاسيما أنه شعر أنه في غير مكانه الطبيعي، فضل أن يبقى صامتاً، وعادت هي تعترف بهدوء:

ـ وكذلك لم تتحقق أمنياتي الأخرى، إذ كان من المفترض أن أتزوج أمير الأحلام الوسيم وأعيش بقية حياتي سعيدة. أظنني لا أعرف كيف أصوغ التمنيات.

أحضرت النادلة القهوة فأنقذته من الإجابة. أحسّ غاريت بأن ثرثرتها عن أمير الأحلام وتمنياتها كلّها مرتبطة بهربها من حفلة زفافها.

ـ كان من المفترض أن يكون هذا اليوم أسعد أيام حياتي. هذا ما قالته لي أمي قبل وفاتها لكنه أسوأ يوم في حياتي، كل ما أردته هو شيء من الإ... حـ... ترام. لكنني لن أكون... محترمة... أبداً... أبداً.

قالت ذلك وصوتها الرقيق يرتجف من فيض المشاعر. ما هو بحق الله ذلك الجرم الذي اقترفته فجعلها تعتقد بأنها لا تستحق الإحترام؟ وشعر بالعطف عليها، عطف ممزوج بالفضول. لكنه كبح هذين

الشعورين، رافضاً أن يشغل نفسه بمشاعر هذه المرأة المضطربة. وقرر أنه ما إن يجمع منها بعض المعلومات لكي يتمكن هارلان من استدعاء أحد ليقلّها، ستنتهي مهمته وينسى هاتين العينين الزرقاوين الملائكيتين اللتين يتملكهما الضياع والوحشة، والعجز البالغ... وربما الفضيحة. كان آخر ما يريده أو يحتاجه هو التأمل في حياته الخاصة. وهذه المرأة الغامضة ستدفعه حتماً لذلك.

مد يده وأضاف القشدة والسكر إلى قهوتها بسخاء حسب طلبها، ثم قدمها إليها. سحبت نفساً عميقاً مرتجفاً، ثم رفعت إليه عينيها المضطربتين.

ـ أتظن أنني سأستيقظ في الصباح فأجد أن كل هذا حلم مرعب، ليس إلاّ؟.

تمنى لو يستطيع أن يطمئنها، لكنه بدلاً من ذلك، حاول أن يخفف عنها بابتسامة:

ـ هيا اشربي بعضاً من هذه القهوة. ستشعرين بتحسّن.

قطبت حاجبيها الأنيقين ثم حملت فنجانها تحيطه بيديها:

ـ أنا بخير... أنا بحالة ممتازة.

ـ أهه...

قال ذلك يوافقها مازحاً، ثم وضع أصابعه تحت الفنجان، وساعدها لكي تدنيه من شفتيها. واستقرت شفتاها على حافته، ثم انكمشت، هل بسبب حلاوة القهوة البالغة، أم ثقلها؟ لم يكن يدري. ثم بادرها بالأسئلة السهلة قبل الصعبة:

ـ ما اسمك؟

ـ جينا تشيستفيلد...

وبدا الإضطراب على ملامحها وهي تفكر في ذلك الاسم، ثم هزت رأسها فتدلّت بعض خصلات شعرها على صدرها.

ـ لا... لم تنطق قط بكلمة (نعم) أمام الكاهن. لهذا أظن أن اسمي لا يزال «جينا فيليبس فقط».

جينا فيليبس فقط. كان غاريت واثقاً من أن ثمة قصة وراء ذلك. قصة لا يريد هو أن يتورط فيها. أخذ يذكر نفسه بذلك بينما كانت نظراته متسلّطة على يدها اليسرى فأثبتت له غياب الخاتم من إصبعها أن زواجها لم يتمّ.

عادت تريح ذقنها على راحتها، وكأنما أصبح رأسها الجميل ثقيلاً على كتفيها.

ـ ما اسمك أنت؟

ـ غاريت.

أجابها بذلك عازماً على أن تقتصر الأمور بينهما على الاسم الأول فقط.

ـ غاريت.

رددت اسمه بصوت أبح فبدا حميماً للغاية وهو يخرج من بين شفتيها.

ـ إنه اسم جميل وقوي ومحترم. هل أنت رجل محترم؟

كاد يضحك، لكن حسن سلوكه جعله يكبح ذلك، وقال:

ـ جينا، هل هناك من يمكننا استدعاؤه ليقلّك؟

ـ لا..

أجابته على الفور، فلم يكد يصدق:

ـ أليس لك أقرباء؟

وإذ تذكر أنها قالت إن أمها توفيت، سارع بالقول:

ـ أبوك أو أقرباء آخرون؟

طرفت بأجفانها، ثم ملأ عينيها حزن غريب، وحدة عميقة مست شغاف قلبه، ثم همست بصوت متألم:

www.elromancia.com

ـ أبداً. لا أحد.

ـ وماذا عن خطيبك. هل يمكننا استدعاؤه؟

أجفلت لذكر الرجل الذي يُفترض أن يصبح زوجها وارتسم الحزن مجدداً على ملامحها، رأى غاريت الندم البالغ والأسى والخوف في عينيها قبل أن تخفضهما. وتقول بصوت مختنق:

ـ لا. لن يريدني بعد الآن، بعدما جلبت الخزي له ولأسرته. لا يمكنني العودة إليه أبداً.

تملكت غاريت موجة أخرى من العطف، فحاول أن يتجاهلها، فهو لا يريد أن يهتم بهذه المرأة، وورطتها، وسبب اعتقادها أنها خيّبت أمل الرجل الذي كانت ستتزوجه.

هذا عظيم، ماذا يجدر به أن يفعل الآن؟ ونظر ناحية المقصف فالتقت عيناه بعيني هارلان المتسائلتين. عدا عن معرفته باسمها وبأنها على ما يبدو تشعر بالوحدة نفسها التي يشعر هو بها لم يحظ بأي معلومات جديدة.

حسناً.. لقد أدى واجبه وبقي على هارلان أن يرى ما ينبغي أن يفعله بهذه العروس الوحيدة هذه الليلة. وهمّ بالخروج من الغرفة الصغيرة لكنها تشبثت بذراعه فوقف على الفور، كانت يدها ناعمة باردة على جلده الحار، ما أيقظ تصوراته عن مدى رقة بشرتها... وشتم في سرّه. هل التهب جسده لمجرد أن لمسته عروس شخص آخر لأنه بدون امرأة منذ وقت طويل؟

من الواضح أنها تشبثت به لكي تشعر بالأمان، وإذ رأى نظراتها الضارعة فجأة، محا أفكاره تلك من رأسه مذكراً نفسه بأن إنقاذه للنساء قد أفسد حياته.

ـ هل ستتركني؟

سألته بذعر وكأنها أدركت لتوها أنها في بلدة غريبة بعيدة.. في

حانة مزدحمة صاخبة، تعجّ برجال متشوقين إلى احتلال المكان الذي أوشك أن يخليه.

ـ أريد فقط أن أتحدث إلى هارلان. لن يزعجك أحد.

وعدها بذلك شاعراً بنوع من الحماية تجاه هذه المرأة التي لا يعرفها. وهذا مؤشر غير جيد. أراد أن يقول إنه من النوع الذي يشعر به نحو ابنته. لكن الشعور الذي أثارته جينا في نفسه لم يكن يمتّ إلى الطفولة بصلة، لا... إن استجابته لها هي استجابة رجل لامرأة وهي خطرة جداً على الحياة الآمنة التي أنشأها لنفسه ولابنته تشيلسي أثناء السنوات الست الماضية.

وكلما أسرعت في العودة إلى سانت لويس وحياتها التي ما زالت بانتظارها... تلك الحياة التي هي حتماً أكثر رقياً وتحضراً وإثارة مما هي عليه في هذه المدينة الصغيرة «دانبي»، كان هذا أفضل لهم جميعاً.

وأومأ نحو فنجانها قائلاً:

ـ أنهي أنت قهوتك.

فاشتدت أصابعها على ذراعه:

ـ هل ستعود؟

ودّ لو يرفض، لكن نظرة التوسل التي ألقتها هذه الفتاة الحزينة عليه، مست شغاف قلبه، وجعلته يشعر بأشياء لم يشعر بها منذ سنوات. فأجاب:

ـ نعم. سأعود.

ولو ليساعدها فقط في الوصول إلى السيارة التي ستقلّها، أو ليتأكد من أنها ستمضي الليلة في مكان آمن، كما أخذ يحدث نفسه. عندئذٍ تنتهي مهمته مع هذه العروس الضائعة وموقعها المعقد.

ـ أتراك جننت؟

قال غاريت ذلك لهارلان وهو يحملق فيه بعد أن استوعب ما اقترحه

عليه.

ـ لا يمكنني أن أصطحبها إلى بيتي!

فقال هارلان باستخفاف:

ـ هيا، يا غاريت، أنا واثق من أن ذهنها سيكون أكثر صفاء عند الصباح، وستدرك خطأها وتعود من حيث جاءت. إنها ليلة واحدة وليس الحياة كلها، يا بلاكويل.

لكن ليلة واحد كانت تمثل ليالٍ كثيرة في ذهن غاريت نظراً لتأثير هذه العروس الهاربة على مشاعره. فقال له:

ـ ابحث عن شخص آخر يا هارلان.

وراح هارلان يتفحص زبائن الحانة بنظراته، ثم نظر إلى غاريت قائلاً بجد:

ـ لا أثق بأحد غيرك.

وشعر غاريت بألم في صدغه فدلّكه بأصابعه وقام بمحاولة أخيرة ليقنع هارلان بأنه ليس بالرجل الذي يصلح للعناية بجينا فيليبس. فالنساء الوحيدات اللاتي يريد أن يشعر نحوهن بواجب الحماية هن والدته وابنته وأخته ليزا. فقال:

ـ أنا لا آوي المشرّدين.

فتنهد هارلان مستسلماً:

ـ أظن أنني مضطر للاتصال بشريف المدينة وسيكون عليها أن تمضي الليلة في زنزانة المخفر.

وعاد هارلان إلى زبائنه، تاركاً غاريت يصارع شعوراً من الضيق وعدم الارتياح. ونظر إلى جينا التي بدت بالغة الإرتباك والضياع... وتصور هذه العروس الناعمة الرائعة الجمال، وربيبة المدينة في سرير ضيق، خائفة مشتتة الذهن، دون أثر لذلك الاحترام والكرامة اللذين قالت إنها تتمناهما.

فتملكه التردد والحيرة، وأخذ يقاوم مبادىء الشهامة التي غرستها أمه فيه، ودار جدال بينه وبين ضميره. لم يكن يريد تحمل مسؤولية هذه المرأة المضطربة الشخصية، ولم يشأ أن يزج نفسه في مشاكلها وما يتبع ذلك من تعقيدات، كما أنه لا يريد أن يغريه نومها في بيته ولو ليلة واحدة.

وبينما كان غاريت غارقاً في تأملاته، دخل «بو هاردينغ»، وهو رجل يعمل في مصنع أخشاب في البلدة، وتوجه إلى المكان فأومأ إليه غاريت بتحية مهذبة، على الرغم من أنّه لا يحب هاردينغ هذا فهو لا يوحي له بالثقة. أضف أنه بالغ العجرفة، إلى درجة تؤثر على مصلحته. ومنذ شهر، قصد شركة غاريت «هندسة بلاكويل» يطلب عملاً لفترة الصيف، ومع أن غاريت كان يفكر في إضافة عامل جديد إلى مجموعة عمّاله، إلا أنه أطاع غريزته ورفض تشغيله.

نظر «بو» من فوق كتفه نحو جينا، ثم ابتسم لهارلان ابتسامة ذئب عريضة.

ـ مرحباً، يا هارلان. من هي تلك العروس الجميلة هناك؟

فأجابه هارلان مُرغماً:

ـ إننا نفكر بما ستفعله بشأنها.

فالتمعت عينا «بو» اهتماماً:

ـ أتريد من يأخذها إلى نزل تمضي فيه الليلة؟

في صوت الشاب بدا سوء النية. ومجرد التفكير في ملامسة هذا الشاب لجينا، أو إمكانية أن يستغل بؤسها، جعل غاريت يشعر فجأة بالرغبة في حمايتها، فقال بحدة قبل أن يتمكن هارلان من الإجابة:

ـ لا. لديها حالياً مكان تنزل فيه.

ارتفع حاجبا هارلان بدهشة، وهو يفكر بمدى عناد غاريت منذ لحظات فقط إذ رفض أيّ تورط مع هذه العروس، وتحولت نظرات «بو»

الوقحة إلى غاريت.

ـ فكرت فقط في تقديم المساعدة..

قال ذلك ببطء ثم ابتعد.

كان غاريت واثقاً من أن «بو» يريد فعلاً أن (يساعد) جينا، فالتهب غضبه واستحال ناراً في دمه، ما جعله يجفل لما أثارته في نفسه من شعور بالتملك نحوها. فآخر مرة تملكه إحساس ساحق كهذا كان لأجل امرأة أخرى، هي والدة تشيلسي، وتلك المواجهة لم ينتج عنها سوى الحزن وتحطم القلب، والمرارة الدائمة لاستغلالها له وخيانتها.

ـ سأذهب لأحضر حقيبة ملابسها من غرفة الأمتعة.

وذهب هارلان مسرعاً وكأنه يخاف من أن يغير غاريت رأيه. وأخذ غاريت نفساً عميقاً مهدئاً وقال في نفسه إنها ليلة واحدة....

ومن ثم تغادر حزمة المشاكل هذا المنزل وتعود إلى سانت لويس مدينتها.

وهذا هو الحل الوحيد لها.

* * *

٢ ـ ضيفة الليل

للمرة الأولى منذ ست سنوات، يصحب غاريت امرأة إلى بيته. من السخرية البالغة أن تكون هذه المرأة عروس رجل آخر. صعدت على الفور إلى المقعد الأمامي في شاحنته، فالتف ثوب الزفاف الأبيض حولها كسحابة متألقة.

وبدون تردد جلست على المقعد، ثم استسلمت للنوم على الفور إذ يبدو أن اليوم الشاق الذي أمضته، قد فعل فعله معها. أقلقته ثقتها بأنه سيرعاها، فهو في نهاية المطاف غريب تماماً عنها، ومع أنه لم ينتهز فرصة الايقاع بأي امرأة في حياته، إلا أنه كان واثقاً من أن جينا فيليبس لو لم تكن بائسة على هذا النحو لما تركت الحانة قط معه بإرادتها.

ولكن نظراً للطريقة التي اختارتها لتدفن أساها، لم يكن من خيار آخر أمامها، وكما يعلم هارلان جيداً، كانت جينا معه أكثر أماناً منها مع «بو»، أو حتى في النزل.

بدت الدقائق التي أمضياها في السيارة وكأنها نصف ساعة. وفي كل شبر من الطريق كان يحاول ألاّ يفكر في هذه المرأة التي استسلمت للنوم وسقط رأسها على كتفه، لكنه اكتشف أنه لا يستطيع التفكير في أي شيء آخر. كان رأسها الأشقر على كتفيه ومع كل نفس كانت تتنفسه كان جسمه يتكهرب وكان عطر شعرها الأجعد الثائر أشبه بالعسل.

www.elromancia.com

وإذا لم يستطع مقاومة الإغراء، لمس واحدة من تلك الخصلات الذهبية وأخذ يداعبها بين أصابعه دون أن تدهشه نعومتها ودفؤها. لكنه لم يجرؤ على اطلاق العنان لمشاعره.

وأخيراً وصلا إلى بيته ذي الطابقين، فأوقف شاحنته أمام الباب الأمامي، وساد الصمت في الشاحنة، لا يخرقه سوى صوت تنفس جينا المنتظم. لم يشأ أن يزعجها لكنه كان يعلم أنها ستشعر براحة أكبر في السرير داخل المنزل، فلمس كتفها يهزها بخفة، قائلاً بصوت خافت للغاية:

ـ جينا؟ هيا، عليك أن تنهضي.

تمتمت بشيء في نومها عن أمير الأحلام، ثم حكّت خدّها بكتفه وهي تندس فيه متنهدة بارتياح. صرف بأسنانه إذ شعر بدمه يشتعل في عروقه لحركتها هذه ويذكره بقسوة بأنه أمضى وقتاً طويلاً بدون امرأة.

ازداد تصميمه على ايقاظ هذا الجمال النائم، فهزها بشيء من العنف لم تستطع تجاهله.

ـ استيقظي يا جينا.

تأوهت، ثم فتحت عينيها، وجلست ببطء.

أزاحت شعرها عن وجهها وهي تطرف بعينيها ثم نقلت نظراتها منه إلى البيت المظلم أمامها، وقطبت جبينها مشوشة الذهن، قبل أن تسأله بصوت أبح ناعس بدا في أذنيه مغرياً للغاية:

ـ أين نحن؟.

فتح باب السيارة، ثم قفز إلى الليل المضاء بضوء القمر:

ـ في البيت.

قال ذلك وهو يسحب حقيبتها من الشاحنة.

ثم مد يده ليساعدها على النزول، لكنها لم تتحرك، وإنما هزت رأسها وقد بانت على ملامحها إمارات الوحشة والضياع بشكل يحطم

القلوب، وهمست قائلة:

ـ لم يعد لديّ بيت.

إنها تمزح حتماً أو هي منفعلة، وهذا هو الأصوب فحتى لو لم تتزوج، فلا بدّ أنها تقيم في (مكان ما)، وأن لها أصدقاء وأقارب سيفتقدونها، وحياة تستأنفها قريباً.

ـ لأنك لم تذكري من يمكننا أن نستدعيه ليأخذك، يمكن أن تبيتي هنا الليلة. سنبحث في الأمر صباح غد...

وخطر له فجأة أنها ربما متوجسة قليلاً من المبيت معه في البيت فتابع:

ـ هل هذا يناسبك؟.

أومأت وهي تأخذ نفساً مرتجفاً وتضع يدها بيده، سامحة له بأن يساعدها على الترجّل من الشاحنة بثوب زفافها الطويل. وعندما نزلت إلى الرصيف بحذائها الحرير الأبيض تمايلت مترنحة، وبحركة غريزية أحاط خصرها بذراعه وساعدها على الدخول إلى بيته، شاكراً الله أن ابنته بقيت في بيت شقيقته، وأن أخاه لا بد وجد مكاناً آخر يمضي فيه الليل، هو أيضاً. ولكن كلاهما يعود غداً صباحاً وحينئذٍ يشرح لهما أمر هذه الضيفة. أمّا إذا كان الحظ حليفه، فستكون قد غادرت منزله قبل غروب شمس الأحد.

أشعل النور في غرفة الجلوس ينير طريقهما إلى السلالم. وحتى قبل أن يصعدا كان يفكر في المكان الذي ستنام فيه، إلى أن استقر رأيه أخيراً على أكثر الخيارات عقلانية، الغرفة الرئيسية أي غرفته، حيث أن فيها حماماً خاصاً. أما هو، فسينام في غرفة ابنته المجاورة.

وشكراً لابنته تشيلسي التي رتبت سريره بعناية، أمّا الملابس المستعملة التي كان عادة يلقي بها على كرسي في الزاوية، فوضعتها في سلة الغسيل، مما أسبغ على الغرفة بعض الترتيب. وصحيح أن عفريته

الصغيرة تبلغ ثمانية أعوام فقط، لكنها تأخذ واجباتها المنزلية السهلة مأخذ الجد حيث أنها اعتبرت نفسها (سيدة) البيت وإن لم يمنعها هذا من تذكيرها له دوماً بأنه بحاجة إلى زوجة، وبأنها تريد (ماما).

إلاّ أنه لسوء الحظ لا ينوي الزواج مجدداً، فزوجة واحدة كانت أكثر من كافية بالنسبة إليه، وقد تعلّم ألاّ يكرر هذه التجربة مع امرأة أخرى، بما في ذلك هذه المرأة مهما بلغت من الإغراء.

أما بالنسبة إلى (الماما) لابنته فإن أخته ليزا تعوضها بشكل ممتاز عن حنان الأم الذي تحتاجه تشيلسي.

نظرت جينا إلى أثاث غرفته بدون أن تظهر بادرة قلق بشأن صاحب الغرفة التي احتلتها. وعندما جلست بثوب زفافها على السرير ذي الأعمدة الأربعة، وضعت حقيبتها قرب منضدة الزينة.

ـ هذا هو باب الحمام.

قال ذلك مشيراً بإصبعه.

ـ وإذا احتجت أي شيء، ناديني فقط، سأكون في الغرفة المجاورة.

ثم استدار يهم بالخروج.

ـ غاريت.

نادته برقة قبل أن يهرب بسرعة.

نظر إليها وهو يحصّن نفسه إزاء تلك النظرة الضائعة في عينيها.

ـ نعم؟.

كانت قد خلعت حذاءها، فقالت:

ـ أنا لا... لا أستطيع فك أزرار ثوبي بنفسي.

ثم وقفت وأدارت له ظهرها، جامعة شعرها الكثيف الرائع فوق كتفيها ليرى صفاً يحتوي على «دزينتين» على الأقل من الأزرار اللؤلؤية.

وقف وقد شلّته فكرة مساعدتها على خلع ثوبها. وأول ما خطر له هو أن يطلب منها النوم بثوبها، لكنه أدرك أنها فكرة حمقاء. فهي متعبة للغاية، وعليها أن تخلعه عاجلاً أم آجلاً.

استسلم إلى ما لا مناص منه، ودنا منها، وبيدين مرتجفتين، أخذ يحاول فك تلك الأزرار الصغيرة الزلقة.

وعندما انتهى أخيراً من هذه المهمة، عاد إلى الخلف ليخرج من الغرفة ويبتعد عن اغراء هذه المرأة. لكنه أدرك أنها حائرة، لا تدرك ما عليها فعله الآن، أو كيف تخطو بهذا الثوب الواسع دون أن تشتبك قدماها بهذه الأمتار المكوّمة من القماش الثقيل.

نظرت إليه طالبة النجدة، فعلم أن عليه أن يحضر لها قميصاً تمضي به الليلة.

وتنهد إذ لم يشأ أن يمضي الوقت في البحث عن قميص نوم لها في حقيبة ملابسها لينتهي أخيراً بقميص شفاف يصلح لشهر العسل.

وأخيراً أحضر لها أحد قمصانه فامتلأت عيناها بتعابير الشكر وحالما أمسكت بالقماش الناعم، استدار لكي ترتديه وبعد دقيقة قالت له بنعومة:

ـ لقد انتهيت.

نظر إليها، وشعر بالارتياح إذ رأى جسدها قد تستر باحتشام، إلاّ أنه لم يستطع منه نفسه من الإعجاب بجسمها في قميصه الواسع. ساعدها على تخطي ثوبها المكوّم على الأرض، ثم أزاح أغطية الفراش، قائلاً:

ـ هيا، إلى السرير.

قال ذلك بكلمات مرحة هي صدى ما اعتاده يومياً مع ابنته.

وجلست على سريره امرأة ناضجة تماماً، ولكن قبل أن يغطّيها، نظرت إلى ساقيها المدلاّتين من حافة السرير، وقالت مقطبة جبينها بحيرة:

ـ لا أستطيع النوم بهما. أريد أن أخلعهما.

توتر فلك غاريت. كان يرجو ألاّ تلاحظ جورييها، آملاً أن تستغرق في النوم حالما تضع رأسها على الوسادة، فلا تجد ما يزعجها.

لكن عناداً مفاجئاً لمع في عينيها، فعرف أن عذابه لم ينته بعد. تراجع إلى الخلف وأدار ظهره لها ليدعها تقوم بذلك، وشبك ذراعيه على صدره كيلا تغويه فكرة مساعدتها.

بعدما انتهت من نزع جواربها نادته مشيرة إلى أنها انتهت. عندئذٍ اقترب منها ليساعدها على الاستلقاء في السرير وتدثيرها بالأغطية.

وإذ تملكه الضيق لشعوره هذا نحو هذه المرأة أمرها بخشونة، متلهفاً للخروج من الغرفة:

ـ هيا اخلدي إلى النوم.

بعدما استلقت على الوسائد، انسدل شعرها حول وجهها كهالة من ذهب، ثم رقّت ملامحها وهي تنظر إليه بعينيها الناعستين. حوّل نظراته بعيداً وهو يرفع الغطاء حتى ذراعيها ويلفها به جيداً.

وعندما استدار ليخرج، أمسكت بقميصه، فانتظر وقلبه يخفق، ليرى ما تريده.

بدا على وجهها مزيج من المشاعر وقالت وقد حوّل النعاس صوتها إلى أجش دافىء:

ـ غاريت. أشكرك.

كان السحر بعينه على بعد سنتمترات والجمال الكامل يشير إليه باغراء. لم يشعر يوماً من قبل بمثل هذه اللهفة لمعانقة امرأة. ابتلع ريقه بصعوبة، ثم قال بصوت خشن خافت:

ـ علام تشكرينني؟.

فارتسمت على شفتيها ابتسامة شوق رقيقة:

ـ على اعتنائك بي. منذ وقت طويل لم يعتن بي أحد بهذا الشكل.

حاول أن يخرج ليتخلص من قبضتها على يده وعلى قلبه، لكنه لم يقو على الحراك، إذ شعر بنفسه مشدوداً إليها ليس بقوة يديها بل بضعفه اللعين هذا واغراء سحرها ورقتها وما يفيض منها من عذوبة واستسلام. وتملكه شوق محموم مفاجىء.

لم يكن ينوي أن يعانقها، ولا أن يدع نفسه ينجرف مع رغباتٍ دَفَنها منذ زمن طويل. ولكن عندما طوّقت عنقه بذراعها ببطء، ودفنت يدها في خصلات شعره، ثم أدنت نفسها منه، استعرت النيران في جسمه.

أخذت أهدابها تخفق، وإذا بالتفكير في مقاومتها يتبدّد، لاسيّما أنه وجد في ذلك جهداً بالغاً لا طاقة له عليه.

كانت نيّتها طاهرة عفيفة... مجرد تعبير عن عرفانها بالجميل، وكان يعلم هذا، لكن الطريقة التي ضمته إليها جعلت عناقها له يبدو أكثر من عناق صريح عابر.

شعر بها بين ذراعيه دافئة، رقيقة بشكل لا يصدّق وكان في عناقها وعود كفّ منذ زمن بعيد عن الإيمان بها.

ابتعد عنها على مضض، فصدرت عنها إشارة احتجاج إلا أنه ابتعد. فسقطت يداها على الفراش لتغط في سبات عميق مستسلمة للإرهاق الذي كانت تقاومه. عادت تستقر على وسائده وقد جرفها النوم وهي تتأوه بنعومة حالمة، تاركة غاريت حائراً، مخلوب اللب.

* * *

تأوهت جينا وهي تتقلّب في الفراش، ثم فتحت عينيها إزاء الشمس التي كانت تتسرب إلى الغرفة... ثم أخذت تحدق إلى وجه جميل لفتاة صغيرة ذات شعر طويل أملس أشقر، شعرت جينا نحوه بالحسد على الفور، وعينين خضراوين فضوليتين متأملتين.

كانت الفتاة جاثية أمام السرير، متكئة عليه بمرفقيها، مريحة ذقنها على راحتيها. بدت وكأنها أمضت فترة طويلة، تنتظر جينا لتستيقظ.

وسألتها الصغيرة بفضول أكثر منه باتهام:

ـ لماذا تنامين في سرير أبي؟

فوجئت جينا بسؤال هذه الفتاة التي لا تعرفها، وأخذ قلبها يخفق بعنف وهي تحاول حائرة أن تبحث في ذاكرتها المشوشة الغائمة، عمّا يذكرها بمكان وجودها ويوضح لها كيف جاءت إلى هذه الغرفة الغريبة وهذا السرير الفسيح الذي كان يغلفها برائحة عرفت فيها رائحة الأمير الذي أنقذها الليلة الماضية.

أغمضت عينيها لتتذكر الليلة الماضية وأحداثها المدمرة التي قادتها إلى الهرب إلى مدينة صغيرة لا تعرف فيها أحداً. وتدفقت ذكرياتها كأمواج البحر. كان الشعور بالعار قد سحقها ودفعها للقفز إلى سيارة الليموزين التي كانت تنتظر لتأخذها مع «شيلدون» إلى النادي الريفي حيث ستُقام حفلة التهاني بعد عقد الزواج، ثم طلبت فجأة من السائق أن ينطلق بالسيارة... إلى أي مكان قلّما يهمها طالما أنها تبتعد أميالاً وأميالاً عن ماضيها المشين الذي لم تستطع الهرب منه. ذلك الماضي الذي سيلاحقها إلى الأبد. الماضي الذي أفسد عليها كل فرصة في الحصول على احترام الآخرين.

ما الذي جعلها تعتقد أنها ستتكيف مع حياة شيلدون المترفة وتكون زوجة لذلك الجراح العظيم الشأن؟ حاولت التأقلم مع هذا الواقع، لكنها لم تستطع أن تمحو الغلطة التي اقترفتها.

أضف أن أسرته الثرية ومحيطها من الأصدقاء ممن هم صفوة المجتمع، لن يسامحوها هم أيضاً، على فعلتها.

وبعد أن غادرا سانت لويس، وسارا على غير هدى مدة ساعة أوقف السائق السيارة أمام حانة «ليجر بونيت»، وهو يخبرها بأنه لم يتقاض أجراً لقاء هذه الرحلة الطويلة عبر البلاد.

عندما أدركت أنه لم يبق لها شيء في سانت لويس، نزلت من

السيارة ودخلت ذلك المكان المزدحم واتجهت إلى الغرفة الصغيرة في تلك الزاوية البعيدة وهي تشعر بالوحدة والكرب أكثر من أي وقت مضى.

تذكرت رجالاً أخذوا يحومون حولها وذلك المشرف على الحانة وهو يبعدهم عنها حين اتضح له أنها تريد أن تكون بمفردها وتذكرت غاريت، بعينيه الزرقاوين العميقتين وكيف جعلها تشعر بالأمان بعد أن ظنت أنها فقدت هذا الإحساس إلى الأبد.

رفعت يدها إلى شفتيها، إذ أحسّت بتصلّب في معدتها. فتذكرت، أكثر من أي شيء آخر، كيف عانقت أميرها الفاتن وما شعرت به من حنان وعذوبة في تلك اللحظة الخاطفة.

شعرت جينا بيد رقيقة على شعرها أيقظتها من أفكارها، فرفعت عينيها إلى زائرتها الصغيرة لتجدها تلف حول اصبعها خصلة من شعر جينا وقد بدا عليها الافتتان بالتفاف تلك الخصلة. وعادت الصغيرة تسأل جينا بإلحاح أشد الآن:

ـ لِمَ أنت نائمة في سرير أبي؟.

فأجابت بحذر وهي ما زالت تحاول استيعاب دهشتها لرؤية هذه الجنية.

ـ كنت بحاجة إلى مكان أمضي فيه الليلة، فسمح لي أبوك باستعمال سريره.

وكان هذا كل ما استطاعت أن تتذكره.

ـ آه، وأنت أيضاً ترتدين قميصه.

نظرت جينا إلى القميص لترى أنه ليس ذلك القميص الحرير الذي وضعته في حقيبتها لشهر العسل، وابتدأت الذكريات تتدفق إلى ذهنها القائم، لقد ساعدها غاريت على خلع ثوبها، وقد رأت في عينيه الزرقاوين الداكنتين إحساساً مطمئناً...

وأمالت الجنية الصغيرة رأسها وسألت بفضول:

ـ ما اسمك؟.

فأجابت بابتسامة صغيرة:

ـ جينا. أنت؟

ـ تشيلسي بلاكويل.

ونزلت عن السرير متجهة إلى الثوب الأبيض الموضوع على كرسي في زاوية الغرفة وأخذت تتلمّس القماش اللامع وهي تقول بعجب:

ـ يشبه ملابس أميرة جن.

وما أسوأ ألاّ تتحقق أحلامها، كما في حكايات الجن! أخذت جينا تفكر في هذا عاجزة عن كبت خيبة الأمل التي اعترتها. وقالت بصوت متوتر.

ـ إنه ثوب عرس.

فنظرت تشيلسي إليها بعينين تنطقان رجاء.

ـ هل تزوجك «بابا»؟ هل أنت «ماما» الجديدة؟.

هزت جينا رأسها على الفور:

ـ لا، أبوك لم يتزوجني يا حبيبتي. وأنا لست أمك الجديدة.

وجلست في السرير بحذر، ثم أدلت بساقيها عن حافة السرير وانتظرت ريثما يكف رأسها عن الدوار. لم تشأ أن تخيب أمل الصغيرة فقدمت لها التعزية الوحيدة التي خطرت لها:

ـ لكنني أودّ لو نكون صديقتين.

ـ لابأس إذن.

وابتسمت تشيلسي وقد بدا عليها الرضى.

ـ هل يعني هذا أنك ستقيمين هنا؟

ولم تكن جينا تعرف في الحقيقة ما عليها فعله، وكانت ترجو أن تعرف في الأسابيع القليلة المقبلة المنحى الذي ستتخذه حياتها. في

مطلق الأحوال، كانت تشك في بقائها في هذا البيت مع غاريت وهذه الفتاة الصغيرة المحبوبة.

وقبل أن تجد جواباً، سمعت وقع خطوات تتجه نحوهما...

ثم دخل أمير الليلة الماضية. في ضوء النهار، وبعيداً عن البؤس الذي كان يلفها بالأمس، لاحظت جينا أنه أروع مما تذكره عنه. كان يرتدي بنطلون جينز وقميصاً عادياً يكشف صدره البارز العضلات.

كان ينضح رجولة، بعكس شيلدون وأصدقائه المتأنقين. كان هذا الرجل طبيعياً عملياً غير مصقول... ذا شعر فاحم السواد يظلل عينين زرقاوين رائعتين. أمّا فمه الجذاب، فيزيد وسامته وسامةً. على الرغم من تحفظه وجفائه، تفحصتها نظراته الدافئة، من رأسها إلى أخمص قدميها. وما لبثت جينا أن أدركت أنها ترتدي قميصه.

تمهلت نظراته لحظة على وجهها ما دفعها إلى تذكر عناقه وقوة رجولته.

ثم حول نظراته إلى تشيلسي بابتسامة رقّقت ملامحه وزادت افتتان جينا به.

ـ أهذه أنت يا حلوتي؟ كنت أتساءل أين أنت.

قال ذلك بصوت مليء بالعطف.

ـ جئت إلى هنا لأرتّب الفراش، فوجدت جينا نائمة فيه.

وأسرعت إلى أبيها تنظر إليه ضارعة:

ـ هل يمكنها البقاء معنا؟ أرجوك.

فأجاب هازلاً برقة:

ـ ليست مشردة لتبقيها في بيتك. لقد أرادت فقط أن تقضي الليل هنا. وأنا واثق من أنها، بعد أن ارتاحت، ستعود إلى بيتها. لِمَ لا تذهبين إلى المطبخ؟ سأوافيك بعد دقائق لنعدّ الفطور؟.

امتثلت تشيلسي لما طلبه منها، وعندما خرجت، ساد الصمت في

الغرفة. اشتبكت نظراتهما، وأخذ قلبها يخفق. فآخر ماتريده هو هذا الانجذاب غير المتوقع نحو رجل لا تكاد تعرفه. لاسيما وإنها تحاول التوصل إلى حل بالنسبة لما حدث الليلة الماضية ولما يخبئه لها مستقبلها الغامض.

وتنهدت بعمق:

ـ هل هي ابنتك؟.

فأوماً وهو يحك رقبته وقد بدا عليه عدم الارتياح لانفرادهما:

ـ نعم، إنها ابنتي.

كان حبه لها واضحاً، وكذلك حب ابنته له. لم تكن تشبهه. فشعره الفاحم وعيناه الزرقاوان اللامعتان بعيدة كل البعد عن شعر تشيلسي الأشقر وعينيها الخضراوين وملامحها الفاتنة. وقالت لمجرد الثرثرة:

ـ لا بد أنها تشبه أمها.

أجفل لقولها هذا وقطب حاجبيه متمماً:

ـ لا.. لا تشبهها.

لم يشجعها جوابه المختصر على متابعة الحديث عن والدة تشيلسي. ورأت أن من الأفضل تغيير الموضوع الذي بدا لها حساساً. فقالت:

ـ ابنتك حلوة ولطيفة وناضجة. لقد ظنت أننا متزوجان.

أجفل بشكل واضح. لكنه بقي بعيداً عنها.

ـ ماتت أم تشيلسي عندما كانت هي في الثانية من عمرها تقريباً، ولهذا فهي لا تتذكرها. ولقد بدأت مؤخراً تطالب بأم قربها. أظن أنها عندما رأت ثوب زفافك ووجدتك في سريري هنا، استنتجت الأمر خطأ.

ـ كان استنتاجاً شديد التفاؤل.

قالت جينا هذا برقة، متفهمة حاجة الطفلة إلى أم. فقد نشأت جينا

دون أن تعرف أباها، ورغم وجود أمها بجانبها وكفاحها من أجلها، لم تشعر قط بوجود رجل في حياتها تعتمد عليه. وهو نقص ما زالت تشعر به.

وأجاب غاريت بلهجة ذات معنى:

ـ حسناً، الأفضل ألاّ تسترسل تشيلسي في مثل هذه الأفكار التي لا أشجعها عليها.

ثم سألها بلطفٍ مغيراً الموضوع:

ـ كيف حالك الآن؟

ـ مشوّشة الذهن قليلاً، إنما أفضل من البارحة.

ثم مرّرت أصابعها بشعرها الجعد شاعرة بالندم لتمزيق نظام حياته ولو ليوم واحد.

ـ غاريت، أنا آسفة جداً بالنسبة لليلة الماضية.

فهز كتفيه العريضتين:

ـ ليس هناك ما يستدعي الأسف. لم يكن بإمكانك الذهاب إلى أي مكان، فمنحتك مكاناً تبيتين فيه.

ـ لا شك أنني أفسدت عليك سهرتك، وتطفلت على حياتك المنزلية وأسرتك حتى أنني نمت في سريرك. وأنا أعرف ممّا أتذكره عن البارحة أنني تصرفت بحماقة في الحانة.

فلقد تذكرت السخافات التي تفوهت بها، مثل كراهيتها لشعرها المجعد ورغبتها في الزواج بأمير الأحلام الوسيم والعيش معه بسعادة مدى الحياة...

أحنت رأسها وقالت وهي تعبث بذهن شارد، بالقميص الذي ترتديه.

ـ وخلافاً لتصرفاتي الليلة الماضية فأنا لم أعتد معانقة الغرباء.

إلاّ أنها لم تشعر بأن غاريت رجل غريب. كان دافئاً ومتجاوباً

معها، فبدا لها من الصعب جداً أن تندم على ذاك العناق العذب الرقيق الذي جعلها تشعر بالأمن والاطمئنان، إذ كان بعيداً عن أي تظاهر أو توقعات أخرى. ولم يكن سوى تجاوباً طبيعياً طالما اشتاقت إليه.

ربما اعتبرها غاريت فتاة وقحة فاسقة لسماحها له بهذا بعد دقائق فقط من الفرار من عند مذبح الكنيسة.

بدّدت هذه الأفكار من ذهنها، وعادت تنظر إليه قائلة برقة:

ـ أنا آسفة على ذاك العناق.

ـ لا. أنا من عليه أن يعتذر.

ومع أن لهجته كانت تؤكد هذا بخشونة، إلا أن المشاعر التي بدت في عينيه، كذّبت محاولته اظهار عدم الاهتمام ثم تابع قائلاً:

ـ وهذا لن يحدث مرة أخرى.

بدا عليه التصميم البالغ، ما جعلها تتساءل عما إذا كان تأثره بذاك العناق يماثل تأثرها هي به.

وسكت كلاهما عندما تناهى إلى مسامعهما صوت الباب الخارجي يصفق بقوة ووقع خطوات تصعد السلم. ثم صوت رجل ينادي بمرح وهزل ينمّ عن خلوّ بال:

ـ أنا هنا، يا أعزاء.

اتسعت عينا جينا دهشة، بينما تأوه غاريت. وإذا برجل حسن المظهر يلقي نظرة إلى غرفة غاريت وهو يجتاز الممرّ ثم يتوقف فجأة، ثم يتراجع ويقف عند الباب. بدا الرجل نسخة مصغرة عن أميرها، رغم أن شعره أكثر كثافة. نقل نظراته من جينا إلى غاريت، ثم قال ضاحكاً:

ـ حسناً، يا أخي الأكبر. يبدو أنني لم أكن المحظوظ الوحيد الليلة الماضية.

توهج وجه جينا لهذا التعريض، بينما عبس غاريت وقال بسرعة:

ـ ليس الأمر كما تظن، يا ريلان.

ارتفع حاجبا ريلان الأسودان بعدم تصديق:

ـ أتريد أن تقنعني أن في سريرك امرأة رائعة الجمال ولم...

فرفع غاريت يده بسكته وهو ينظر إليه محذراً:

ـ لا. لم نفعل. وسأشرح لك كل شيء في الأسفل.

ـ ألا يمكن أن تعرفني إليها على الأقل؟

فتنهد غاريت.

ـ جينا، هذا أخي الأصغر ريلان. هذه جينا فيليبس.

فقالت وقد لاحظت أن الشاب مسلٍّ وليس جاداً كأخيه الأكبر:

ـ يسرني التعرف إليك.

ـ وأنا كذلك.

قال هذا متفحصاً وجهها بشكل أخجلها.

ـ أنت لست من هذه البلدة، أليس كذلك؟

ـ لا. إنها من سانت لويس.

أجاب غاريت عنها وهو يشير إلى أخيه بمغادرة الغرفة، وهو يتابع:

ـ ولن تمضي هنا وقتاً يكفيك لمغازلتها.

فقال الفتى بابتسامة عريضة وهو يغمز جينا:

ـ ومن سأل عن الغزل. كنت سأطلب منها الخروج معي مباشرة.

بدا العنف على ملامح غاريت:

ـ وهل سئمت من «إيما جينتري» بهذه السرعة؟

ـ أنا وإيما غير ملتزمين ببعضنا البعض.

قال هذا وهو يهز كتفيه.

فأجاب غاريت وهو يشير لأخيه نحو الباب: «وجينا غير مهتمة بك. أخرج»..

كبتت جينا ضحكة على هذا الخلاف الودود الذي دار بين الشقيقين لأن غاريت يرغب في حمايتها من أخيه عاشق اللهو والنساء.

عندما خرج ريلان من الغرفة، عاد غاريت يواجهها قائلاً بجفاء:

ـ أهلاً بك في منزل آل بلاكويل المجانين. وكما لا بد أنك لاحظت، وجود ضيفة في المنزل، وخصوصاً في غرفتي، هو شيء غير مألوف.

قال ذلك بشيء من الهزل، إلاّ أنه كان في قوله هذا ما ينبىء بالكثير عن غاريت نفسه، وهو أنه رجل مستقيم شهم.

وقد أثبت هذا بانقاذها الليلة الماضية ومنحها مكاناً آمناً بقيت فيه، أضف أنه عاقل حكيم بشأن أسرته وحياته الشخصية.

وكانت جينا تقدّر هذه الصفات، وإن كانت تدرك كم يتعارض ماضيها غير المتحفظ مع مبادئه الرفيعة.

وما إن راودتها فكرة زج غاريت وأسرته في فضيحة تثقل ضميرها طوال الحياة، حتى انبلج الواقع أمامها. فعلى الرغم من استمتاعها بدفء عواطف آل بلاكويل ومودتهم، كان استغلال ضيافتهم آخر ما تريده.

أخذت نفساً عميقاً لم يفلح في تبديد الألم الذي يعتصر صدرها، ثم نهضت من السرير.

ـ أودّ لو أستحم وأغير ملابسي، إذا لم يكن لديك أي مانع.

وعندما أومأ موافقاً، ابتسمت وأضافت:

ـ سأوافيكم إلى الطابق الأسفل حالما أنتهي.

ـ وسيكون الفطور بانتظارك.

وسار نحو الباب ولكن ليس قبل أن يلقي عليها نظرة أخيرة متمهلة شعرت بها بقوة عناقه الليلة الماضية.

ثم خرج.

* * *

٣ ـ تيار المشاعر الفضي

لم يكن الفطور وحده بانتظار جينا في المطبخ، فقد وجدت نفسها بمفردها برفقة امرأة جميلة لكنها حامل. وكانت هذه المرأة تخلي المائدة، وبمجرد النظر إلي عينيها الزرقاوين الرائعتين وشعرها الأسود الأملس الذي يصل إلى كتفيها، أدركت جينا أنها أمام فرد آخر من أسرة بلاكويل.

لم تفاجأ المرأة بوجود شابة غريبة في البيت، لكن نظراتها الرقيقة تفحّصت جينا سريعاً من رأسها حتى أخمص قدميها، من الثوب القصير القطني الأزرق الذي ترتديه إلى الحذاء العالي الملائم له. كان واضحاً أن هذا النوع من الملابس ليس مناسباً لتمضية يوم الأحد في المنزل، إلاّ أنه من اختيار خطيبها، وهو أكثر الثياب التي أحضرتها بساطة، لأنها كانت تعلم أن شيلدون يفضل أن تلبس دوماً آخر الأزياء وتبدو في قمة الأناقة.

شعرت فجأة بأنها مخادعة، فبارتدائها هذا الثوب الأنيق، تمثل المرأة التي كانت سابقاً المرأة المتلهفة، متلهفة لإرضاء شيلدون وأمها ولو إلى حدّ معين. لكن الحقيقة تبقى هي هي، فتحت هذه الملابس المتأنقة، بساطة تميّز جينا، هذه الفتاة العادية.

وشعرت فجأة بأنها تريد أن يقبلها الآخرون لذاتها، بدون تصنع،

وبدون أن يحكموا عليها بسبب هفوة ارتكبتها في الماضي... إذا كان هذا ممكناً.

حيّتها المرأة الأخرى بمودّة، وهي تنقل الصحون إلى الحوض.

ـ صباح الخير. أتريدين قهوة، أم فطوراً؟ ترك لك غاريت طبقاً من الكعك الساخن في الفرن، إذا كنت جائعة.

كانت جينا تشعر بمعدتها تجيش فأجابت:

ـ ربما لاحقاً. أما الآن فأريد قهوة من فضلك.

نظرت إلى المرأة وهي تعد لها القهوة ثم تقدمه لها قائلة: «ضعي السكر والقشدة بنفسك».

سألتها جينا وهي ترشف القهوة: «أين غاريت؟».

ـ إنه في الخارج مع ريلان وزوجي دوين يفحصان عدّاد الماء وسيعود في أي لحظة. وتشيلسي تلعب خلف البيت.

ثم أراحت يدها على بطنها المنتفخ.

ـ لا شك أنك تتساءلين من أكون.. أنا ليزا أخت غاريت.

قالت جينا وهي تصافح يد ليزا الممدودة: «تسرني معرفتك. أنا جينا فيليبس، لكنني أفترض أنك تعرفينني».

ـ نعم. لقد حدثني غاريت عنك وعمّا جرى الليلة الماضية في حانة «ليجر بوينت».

من الغريب أنها لم تلحظ أي إدانة أو انتقاد في لهجة ليزا، مع أن جينا كانت واثقة من أن المرأة تتساءل عن سبب فرارها يوم عرسها، لكن شرح ذلك صعب ومعقد، كما أنها لا تريد التحدث مع أي أحد عن المذلة والعار اللذين يرافقان أسباب فرارها.

ـ نظراً لحالتي النفسية الليلة الماضية، أقدّر كثيراً شهامته لسماحه لي بالمبيت هنا.

ـ نعم، يسعدني أن أرى أن أخي ما زال قادراً على القيام بعمل نبيل

تجاه امرأة، إذا تطلب الوضع ذلك.

وجدت جينا ملاحظة ليزا هذه غريبة غامضة، تتضمن معنى لم تستطع فهمه تماماً. ذلك أنه بالنسبة إلى حسن استضافة غاريت الليلة الماضية، ورغم (عمله النبيل) حسب وصف أخته، بدا لها من حديثها السابق معه أنه يريد منها أن تعود إلى بيتها اليوم. ولسوء الحظ، لم يعد لها في سانت لويس سوى الذكريات السيئة والاحساس بالفشل.

نظرت إلى بطن ليزا ثم قالت لتغير الموضوع: «متى تلدين؟».

أجابت ليزا وهي تجلس ببطء:

ـ ليس بالسرعة التي أتمناها.

وضحكت الاثنتان.

ـ قال الطبيب إنني أحمل توأماً ولن ألد قبل خمسة أسابيع لكنني أشعر وكأنني سألد جاكوب وجانيت الآن.

فقالت جينا باعجاب: «توأماً؟ فتاة وصبي. ما أروع هذا!».

فأخذت ليزا تمرّر بيدها على بطنها بحنان رغم الإرهاق البادي على ملامحها:

ـ نعم. هذا رائع. لكن علي أن أعترف بأن مجرد التفكير في إنجاب توأم أمر مخيف.

رغم هذه المخاوف المنطقية، شعرت جينا بأنها تحسد هذه المرأة والأسرة التي ستكوّنها عمّا قريب. فهذا ما طالما تمنته لها ولشيلدون لكنه لم يعد يحق لها بهذا الحلم بعد أن تركته في الكنيسة... بينما لم يفعل هو شيئاً ليمنعها من الذهاب.

شعرت بغصة مفاجئة في حلقها فتنحنحت: «أنا واثقة من أن بهجة الأمومة ستتغلب على كل شيء».

ـ هذا ما أقوله لنفسي دوماً.

وتحركت ليزا في مقعدها وقد منعها الحمل من الجلوس بوضعية

مريحة.

وبعد دقائق، دخل غاريت المطبخ. فاستقرت عيناه باهتمام على جينا أولاً، وعلى الطقم القصير الذي ترتديه والحذاء ذي الكعب العالي، قبل أن ينظر إلى أخته.

ـ لقد أصلحنا مضخة الماء بشكل مؤقت إلى أن تأتي الشركة لإصلاحها هذا الأسبوع.

قال هذا ثم سار إلى الحوض ليغسل يديه.

ـ دوين ينتظرك في الخارج، وهو جاهز للرحيل. شكراً لرعايتك لتشيلسي الليلة الماضية.

ـ كان هذا من دواعي سروري. وجودها يفرحني وأنت تعلم ذلك.

وجاهدت ليزا لكي تقف وإذا بغاريت يهبّ إلى جانبها ويمسك بذراعها برفق ليساعدها على النهوض. وعندما وقفت على قدميها ضحكت وهي تلهث: «شكراً لك لمساعدتك لنا، نحن الثلاثة».

وضغطت بيدها على أسفل ظهرها: «أراك في المكتب غداً».

ـ سأكون هناك باكراً. لديّ أعمال أقوم بها ولن أستطيع التوجه إلى المدينة لمراجعة مشروع «ليبرمان» قبل الحادية عشرة. وبما أن لا شيء في الصباح يستدعي العجلة فاذهبي عندما تشائين إلى المكتب.

ـ سأبكر في الذهاب أنا أيضاً، لأنه عليّ ادخال المدفوعات إلى الكمبيوتر و... أو مممم....

وقطعت حديثها وهي تضغط على أسفل بطنها مصدرة صوتاً مختنقاً بسبب الضيق الذي شعرت به في أحشائها.

وتوترت شفتا غاريت:

ـ أظن أن الوقت قد حان لتأخذي إجازة الأمومة.. عليك أن ترتاحي في بيتك، لا أن تعملي في المكتب.

أخذت تمرّر يدها على بطنها برفق: «قال الطبيب إنه بإمكاني

مواصلة العمل حتى موعد الولادة، إذا شعرت بالقوة لذلك».

ـ وأنا رب عملك وأخوك الأكبر وأقول إن لم تأخذي الإجازة التي يحق لك بها، فسأطردك من العمل.

كانت لهجته ممازحة، لكن ملامحه جادة تماماً.

ـ أنت في شهرك الثامن وتبدين مرهقة. سأضع إعلاناً في الصحيفة المحلية هذا الأسبوع أطلب فيه سكرتيرة بديلة للمكتب، كما لا أريدك بعد الآن أن ترعي تشيلسي بعد ظهر كل يوم. عندما تذهبين في إجازة، يمكنها أن تبقى معي في المكتب.

تذمّرت ليزا لهذه المبالغة في الاهتمام: «لقد أصبحت سخيفاً، يا غاريت».

ـ هكذا أنا!.

قال ذلك، رغم أن العطف البادي على ملامحه رقق من تعنيفه لها.

ـ استفيدي من الوقت القليل الباقي لنفسك يا أختي، لأن حياتك ستتغير حتماً، بعد ولادة هذا التوأم.

فتحت ليزا فمها لتناقشه، ولكن جينا رأته يقطع النقاش بنظرة صارمة تحسم الموقف فأذعنت ليزا متنهدة: «حسناً، أنت الرابح».

ثم التفتت إلى جينا بابتسامة منهكة:

ـ سرّني جداً التعرف إليك.

فردت جينا ببسمة ودودة: «أنا أيضاً. وأتمنى لك حظاً سعيداً مع التوأم».

وما إن خرجت ليزا حتى عاد غاريت ذلك الرجل الحذر المتحفظ بمشاعره الذي تركها في الطابق الأعلى هذا الصباح. أحضر فنجاناً وسكب شيئاً من القهوة ثم سألها: «أتريدين مزيداً من القهوة؟».

ـ بكل تأكيد. نصف فنجان يكفي.

عندما تقدم إليها ليملأ فنجانها، شمّت رائحة عطره الفريدة وراح

قلبها يخفق. . فكل ما يتعلق بهذا الرجل ينعش حواسها، ولقد وجدت هذا الشعور غير المألوف مثيراً ومربكا في آن معاً.

تخلصت من مشاعرها هذه بجهد. فآخر ما تريده هو التعقيد الذي سينشأ عن انجذابها إلى غاريت بلاكويل، فالأولوية عندها الآن تتمحور حول مستقبلها.

أحضر طبق الكعك من الفرن وسألها: «هل تناولت فطورك؟».

كانت معدتها قد هدأت، لكنها لم تكن واثقة.

ـ لست جائعة.

ألقى عليها نظرة صارمة كتلك التي ألقاها على أخته: «عليك أن تتناولي شيئاً غير القهوة قبل أن ترحلي».

فقالت بعناد: «لست جائعة».

شبك ذراعيه على صدره فبدا غاية في الجاذبية.

ـ ماذا أكلت أمس؟ لقد هربت من العرس قبل أن تتسنى لك فرصة الاستمتاع بطعام حفلة زفافك.

دفعها اللوم الخفيف في لهجته إلى الدفاع عن نفسها.

ـ تناولت نصف فطيرة. كنت متوترة فلم أستطع أكل أكثر من ذلك.

ـ حسناً، لن تكفيك القهوة طويلاً.

ووضع كعكة في صحن ثم قدمه إليها: «تذوقي بعضاً من هذا على الأقل. وأثناء ذلك يمكننا أن نفكر في ما علينا أن نفعله بشأنك».

ـ ما علينا أن نفعله بشأني؟

ووضعت شيئاً من الزبدة على الكعكة وغطتها بالقطر ثم تابعت قائلة:

ـ قولك هذا وما سبق أن قلته لتشيلسي هذا الصباح، يُشعرني بأنني فعلاً حيوان مشرد.

قابلت نظراته بثبات، كي لا يشعر بأن من واجبه حمايتها.

ـ أشكرك لأنك قدّمت لي مكاناً أبيت فيه ليلة أمس، لكنك غير مسؤول عما سيحدث لي، يا غاريت.

ردّ عليها بخشونة: «لقد أصبحت مسؤولاً عنك منذ اللحظة التي أخبرت فيها هارلان بأنني سآخذك إلى بيتي لتمضي الليل».

تأثرت على الفور بشهامته وإحساسه، وأجفلت للاستياء العميق الذي لمسته في لهجته. . إنه رجل يتحلّى بالكرامة ولكن لسبب ما هو غير مسرور لاستضافته لها الليلة الماضية، والأمر سيّان بالنسبة إلى شعوره بالالتزام نحوها اليوم، وهو شعور في غير موضعه، وكانت واثقة إلى حد ما من أنها ردت له معروفه بذلك العناق العفوي الذي منحته إياه قبل أن تستغرق في النوم.

رغم أن ذهنها كان مشوشاً من تأثير الإرهاق والندم، فهي تتذكر بوضوح طريقة عناقه لها وحلاوة تجاوبه معها.

لم يكن للتحفظ أثر بينهما أثناء ذلك العناق الخاطف، وهذا ما يتناقض مع التوتر الذي طبع هذا الرجل الواقف على مقربة منها، وسألته بهدوء:

ـ لماذا فعلت ذلك؟ أعني لِمَ أحضرتني إلى بيتك؟ كان بإمكانك أن تتركني في حانة «ليجر بونيت» لأهتم بنفسي.

فقال متهكماً: «يا عزيزتي، لم يكن بإمكانك أن تهتمي بنفسك. وخياراتك كانت محدودة. لم أستطع أن أتصورك تمضين الليلة في زنزانة المخفر، كما لم أكن لأسمح لرجل مثل «بو هاردينغ» بأن يأخذك إلى نزل. كنت الوحيد القادر على حمايتك».

ـ شكراً.

هز كتفيه غير مكترث بشكرها، واستند إلى المائدة وأخذ يرتشف قهوته وعيناه الرائعتان بحيويتهما الفياضة تتأملانها من فوق حافة

الفنجان:

ـ إذاً ما الذي ستفعلينه الآن؟.

ـ أتعني بعد أن هربت من زفافي؟ في الحقيقة لا أدري.

لم يكن لديها أي اتجاه حقيقي وإنما تلك الحاجة المدمّرة للصدق مع نفسها... للاستمتاع بالحرية والاستقلال اللذين أصبحا ملكها الآن.

ـ أرجو أن أتمكن خطوة خطوة من إيجاد جواب عن هذا السؤال.

وأول خطوة عليها القيام بها هي شراء ملابس بسيطة مريحة من النوع الذي اعتادت عليه قبل أن تلح عليها أمها بأن تصبح سيدة مجتمع لتضمن لنفسها زوجاً محترماً.

قد تسبغ عليها الملابس الأنيقة مظهر الرقي والتهذيب، ولكنها لا يمكن أن تستر ماضيها الملوث. وستشعر بذاتها الحقيقية في قميص قطني محتشم وبنطلون جينز وأثواب قطنية بسيطة.

قالت وهي تغمس قطعة كعك في شراب القطر:

ـ هل يوجد في الجوار متجر للملابس الشعبية الرخيصة؟

نظر إلى ثوبها الأنيق الغالي الثمن، وقطب جبينه: «متجر للملابس الرخيصة؟».

ردّد كلامها بدهشة واضحة.

كانت تدرك أن نقودها محدودة جداً، وعليها أن تراقب نفقاتها. فأجابت: «نعم. فأنا بحاجة إلى بعض الأشياء ومثل هذه المتاجر تناسبني تماماً».

ـ حسناً، هنالك متجر «كيتس كورنر». وهو يقع في شارع «مالبري».

قال ذلك هو لا يزال غير واثق مما تريده.

ـ جيّد.

وأكلت قطعة أخرى من كعكتها بتلذذ واضح، أمّا هو فوضع فنجانه

من يده وحك رقبته والتشوش والتقطيب لا يفارقانه: «سأطلب من ريلان أن يقلّك إلى المتجر إذا كان هذا مطلبك، ثم يعيدك إلى مدينتك».

كان واضحاً أنه متلهف للتخلص منها، وإن كانت لا تلومه بعد الفوضى التي أحدثتها في حياته. ولكن هناك شيء هي واثقة منه، وهو أنها لن تعود إلى سانت لويس حيث كانت حياتها وهماً مليئاً بالطموحات. أخذت نفساً عميقاً، ثم قالت تخبره بقرارها:

ـ لا ضرورة لأن يعيدني ريلان إلى سانت لويس. فأنا أفكر في البقاء فترة هنا في دانبي.

وبدا عدم التصديق على وجهه الوسيم.

ـ لماذا؟

أفلتت منه هذه الكلمة بلهجة قد خنقتها الصدمة وعدم التصديق.

مسحت فمها بفوطتها ثم قالت ببساطة: «لم يعد لي شيء في سانت لويس».

حدق إليها لحظة طويلة، ثم سألها: «وماذا عن أسرتك؟».

تذكرت حديثهما في الحانة ليلة أمس فقالت: «سبق أن أخبرتك بأن ليس لدي أسرة، وهذا صحيح فأنا لم أعرف أبي قط. كما أن ليس لي أقرباء، وأمي ماتت منذ ثلاث سنوات بداء الرئة».

ـ وماذا عن الجدود والعمات والخالات والأعمام والأخوال أو الأقرباء الآخرين. لا بد أن لديك أحداً منهم.

ـ لم أعرف أياً منهم.

لم تشأ أن تسرد تاريخ أسرتها، وكيف تخلّى جدّاها عن والدتها حين حملت بها وهي في السابعة عشرة.

ـ ليس لدي أحد في الحقيقة.

ـ وماذا عن خطيبك؟

سألها غاريت وقد بدت عليه اللهفة للعثور على أحد يريد أن يأتي

وبعيدها إلى سانت لويس. وتابع قوله: «أنا واثق أن ما حدث بينكما يمكن اصلاحه».

ضاق صدرها فجأة. فعودة الأمور إلى مجاريها بينها وبين شيلدون مستحيلة، وهي تعرف ذلك. لقد صممت على الاتصال به أواخر هذا النهار لتعتذر منه، وتعلمه بمدى أسفها لزجّه وأسرته في فضيحتها الشخصية. ولم تشك قط في أن هذه المحادثة ستنهي خطبتهما.

أحنت رأسها وهي تغسل صحنها وأدوات الطعام، مانحة هذه المهمة أهمية أكثر مما ينبغي. إذ كانت تحاول تجنب نظرات غاريت الثاقبة.

ـ لقد انتهت علاقتي بشيلدون حتماً.

ـ أما كنت تحبينه؟

ها قد عاد غاريت يلومها مرة أخرى. وبما أنه لم يكن يعلم أسباب هربها يوم زفافها، لم تستطع أن تلومه على الانتقاد الذي وجّهه إليها. وشعرت من لهجته بأنه يظنها فتاة متقلبة وقد حطمت بذلك قلب خطيبها.

ـ أحببت شيلدون بجنون.

هو رجل طيب محترم وكثيراً ما كانا يتحدثان عن الحب، إلا أن حبهما لم يكن قط ذلك الحب العنيف المشحون بالمشاعر الجارفة التي كانت تحلم بها.

تابعت تقول: «لكن انفصالنا هو أفضل».

ولأنها شعرت بالتململ تحت نظرات غاريت الفاحصة، تجنبت النظر إليه وأخذت تنظر من النافذة نحو الفناء الواسع الذي تتوسطه بركة سباحة تزيد من جمال المشهد الرائع. وكانت الشمس تتألق على صفحة المياه، داعية إلى نشدان الراحة من حرارة الصيف. وخلف ذلك رأت تشيلسي تتأرجح في أرجوحة خشبية.

قال لها غاريت بلهجة حاسمة: «ستعودين إلى سانت لويس، يا جينا. إنها ديارك».

صحيح أنها عاشت هناك، لكنها لم تشعر قط بالانتماء إلى تلك المدينة الكبيرة. أنهت تجفيف يديها، ثم استدارت تواجهه.

ـ لم أعد أعيش هناك، يا غاريت. ومهما كان ما تظنه، ليس لدي أي سبب يدفعني للعودة.

فتح فمه ليجادلها، لكنها قاطعته مثبتة كلامها بأن ليس ثمة ما يربطها بالمدينة.

ـ لقد تركت وظيفتي كسكرتيرة الشهر الماضي لأصبح زوجة شيلدون. ولم أجدد عقد إيجار شقتي لأنني لم أكن سأحتاجها بعد الزواج. ثم أقنعني شيلدون ببيع سيارتي واشترى لي سيارة مرسيدس لأنها تلائمني أكثر بصفتي زوجة دكتور.. كما أن حاجياتي الشخصية كلها وضعت في صناديق. أنا واثقة من أن شيلدون سيكون سعيداً جداً بإرسالها إلى عنواني الجديد، أينما كان.

وتهدّج صوتها بمشاعر مفاجئة، لكنها أرغمت نفسها على انهاء كلامها، لأجل غاريت ولأجلها.

ـ وحتى أقرر ما سأفعله بحياتي ومستقبلي، فسأبقى هنا. فبقائي هنا في «دانبي» هو كبقائي في أي مكان آخر.

توتر فكّه، لكنه لم يقل شيئاً وقد بدا أنه فوجيء بانفجارها هذا.

تابعت تقول لتحفظ كرامتها:

ـ لديّ انطباع قوي بأنك لا تريدني هنا ولكنني باقية رغم كل شيء. أنا واثقة من أنني سببت لك ما يكفي من الإزعاج منذ الليلة الماضية. ولكن عندما أغادر منزلك، اعتبر أن التزامك نحوي قد انتهى واستنفد أسبابه. فآخر ما أريده هو أن أكون عبئاً على أحد.

أخذا يحدقان في بعضهما البعض، وتشابكت النظرات في منافسة

صامتة بين الإرادتين. وساد توتر ملموس في الغرفة وكان غاريت يتنفس ببطء وقد حيّرته الحرارة والحيوية اللتين تشعان من الحلقة الذهبية التي تشعّ في عينيها. بدت متصلبة مستقيمة في ثوبها الأنيق وقد بان عليها الكبرياء، ولكن الضعف كان كامناً خلف هذا المظهر الصلب.

كانت تكتكات ساعة الحائط تتابع بانتظام وكان شعوره بالندم يتزايد معها. وهذا ما خفّف من الاضطراب الذي كان يوتر عضلاته أثناء حديثها. وعندما أخذ جسمه في الاسترخاء تدريجياً، أدرك أنه قد أثار غيظها واستحق بذلك تعنيفها هذا.

كان من السهل عليه تحليل سبب إلحاحه عليها بالعودة إلى موطنها، فهي توقظ مشاعره وتثير حواسه إلى حد بالغ، وهذا ما يزعجه أكثر من أي شيء آخر... إنه منجذب إليها وهو لا يريد هذا النوع من الانجذاب.

لهذه الأسباب الأنانية، لم يكن يريد أن تبقى جينا في دانبي. ولكن يبدو أنه لا حول ولا قوة. فكل ما يمكنه فعله هو قبول ما لا مفرّ منه وانتظار قرارها بالبقاء. قد لا تعود إلى سانت لويس، لكنه وجد من غير المحتمل أن تختار دانبي مقراً دائماً لها.

لم يكن يعيش هنا سوى أهالي البلدة، إذ لم يكن في مجتمعها الصغير ما يثير اهتمام الزائرين والغرباء عنها. ولقد أثبتت زوجته هذه النظرية إذ سرعان ما تملكها السأم من سحر هذه المدينة الصغيرة القديم الهادىء وقد دفع غالياً ثمن عدم اهتمام «أنجيلا» بزواجهما وبالطفلة التي أنجبتها.

دفعته ذكرياته عن خداع زوجته الميتة إلى مقارنة الأمور ببعضها البعض. ذلك أن جينا، مثل أنجيلا بالضبط، قد تنكرت لعهدها والتزامها في سبيل الاستقلال والحرية. حتى وإن كان لا يعلم بالضبط سبب هرب جينا من عرسها، كان عدم رغبتها في معالجة المشاكل التي

واجهتها مع عريسها، سبباً كافياً ليقتنع غاريت بأن إقامة هذه المرأة في دانبي مؤقتة، ريثما يحدث شيء أفضل وأكثر إثارة. وتنهد مستسلماً.

ـ إذا بقيت في دانبي، فهذا يعني أنه عليّ الاعتياد أن تجمعنا الصدفة مراراً.

ـ نعم. أظن ذلك.

ورفعت ذقنها تعبيراً عن عنادها الذي أثار إعجابه على الفور.

كان شعرها يتماوج كلّما تحركت كشلال من الخصل أو كهالة ذهبية. وبدون أن يفكر بالعواقب أو بالمحاضرة التي ألقاها على نفسه لتوّه، رفع يده وأعاد خصلة شاردة من شعرها إلى خلف أذنها، لكن الخصلة الثائرة عاندته وعادت إلى مكانها. مرّر أصابعه ملامساً وجنتها الناعمة، وشامة الحسن عند زاوية فمها، فأخذت نفساً مرتجفاً ثم حدقت إليه بعينين مليئتين بتردّد وشوق مسّ شيئاً جوهرياً في أعماقه. أراد أن يتراجع.. أن يتركها وشأنها. لكنه عاد فتذكر روعة ما شعر به عندما عانقها الليلة الماضية فتلاشى كل منطق من ذهنه ليحل مكانه شوق ورغبة أخذا يتصارعان مع ضميره، وأخذ صوت في داخله يحذره منها.

أراد أن يعانقها مرة أخرى، وعجز عن إنكار هذا التجاذب بين مشاعره.

خرست إزاء لمسته غير المتوقعة، ولم تقاوم حين رفع ذقنها بإبهامه رغم أن عينيها اتسعتا دهشة. انفرجت شفتاها ولكن ليس للاعتراض. لا.. فقد بدت عاجزة عن النطق، لكن تصرفاتها كانت متجاوبة تماماً مع تصرفاته وبالرغم من اختلافهما والجدال الذي دار بينهما منذ لحظات، كانت تريده هي أيضاً. ودنا منها... ولكن في هذه اللحظة بالذات انصفق الباب الخارجي بقوة.

قفزت جينا إلى الخلف مبتعدة عنه، فتركها على الفور وقد أدرك أنّه تخطّى حدوده معها أكثر مما كان ينوي، وهذا مؤكد: إذ لا شيء يدفعه إلى ملامستها بهذا الشكل الحميم، وليس فقط معانقتها مرة أخرى.

كانت وجنتاها متوهجتين والذهول والذعر يطلان من عينيها استفظاعاً لتصرفها. وابتلعت ريقها لكي تتمكن من الكلام، ولكن قبل أن تنطق بكلمة دخل ريلان المطبخ.

كانت جينا من السرور لظهور ريلان المفاجىء بحيث أوشكت على البكاء لاسيما أنها لم تفعل شيئاً لردع غاريت أو لتجنب ذاك العناق الذي كانا على وشك أن يتبادلاه.

ما الذي حدث لها؟ لولا دخول ريلان لسمحت لغاريت بأن يخطفها في دوّامة هائلة من تلك الجاذبية التي نشأت بينهما... ذلك النوع المتهوّر الطائش من الانجذاب الذي لم تستعدّ بعد لمواجهته، بصرف النظر عما جعلها تشعر به من أنوثة.

لا تريد أن تعيش في دانبي لكي تزيد من أخطائها وهي حتماً لا تريد التورط مع أي رجل، مهما كان انجذابها إليه. فلديها مشاكل عديدة عليها أن تحلّها، وسر عميق أسود لن يسعد أي رجل.

نظرت إلى ريلان بابتسامة جافة. ونظر هو إليها متفحصاً وعلى شفتيه ابتسامة عريضة. لكنه لم يشأ أن يعلّق على ذلك التيار الفضي الذي أحس به واضحاً بين الإثنين. وإنما نقل انتباهه إلى أخيه:

ـ أنا ذاهب إلى المستودع لإحضار سماد للفناء الأمامي. هل تريد شيئاً من المدينة؟.

هز غاريت رأسه ودس يديه في جيبي بنطلونه... تانك اليدان اللتان كانتا تلامسانها برقة منذ لحظات.

ـ لا، ولكن بإمكانك أن تأخذ جينا معك عندما تغادر.

ـ آه؟.

حملت هذه الكلمة الكثير من الفضول بينما تقدم غاريت نحو المائدة بخفة مبتعداً عنها.

ـ تودّ أن تشتري بعض الأشياء من متجر «كيتس لورنز».

ـ وإذا كنت تعرف مكاناً يمكن أن أقيم فيه، فسأكون شاكرة لك أيضاً.

قالت جينا هذا بسرعة. فقال غاريت له: «خذها إلى «إيلاڤي»».

فأومأ ريلان لاقتراح أخيه. وعندما نظرت إليه مستفهمة، قال:

ـ «إيلاڤي» صديقة العائلة وهي أرملة تملك منزلاً كبيراً تؤجر غرفه.

لاح في نفس جينا أول بصيص من التفاؤل. فقالت: «هذا رائع».

التوت شفتا ريلان هازلاً: «لا بأس، فلنذهب إذن إلى نزل «إيلاڤي». عندما تستعدين للذهاب تجديني أمام الباب».

غادر البيت، فساد السكون مرة أخرى. وكانت جينا هي التي بددت ذلك السكون:

ـ أظن أنه عليّ الصعود إلى غرفتك لأجمع حقيبتي ومن ثم أغادر البيت مع ريلان.

واقتربت من مضيفها ومدت يدها بشكل عملي تماماً: «أشكرك مرة أخرى يا غاريت على كل شيء».

تردد لحظة قصيرة، ثم وضع يده في يدها يضغط عليها بخفة ضارباً بمحاولتها هذه عرض الحائط.

وارتجفت لحرارة يده واحتكاك أصابعه الخشنة بيدها الناعمة. ولكن عينيه السوداوين اللتين اشتبكتا بعينيها سارعتا دقات قلبها.

وفجأة سحب يده من يدها بسرعة وكأنه يخاف مما قد تؤدي إليه هذه اللمسة البسيطة...

ـ حاولي أن تبتعدي عن المشاكل، يا جينا.

وكان صوته خشناً خافتاً.

وجاهدت لتتمالك نفسها، وهي تقول: «سأحاول جهدي، ولكن، يبدو أن المشاكل مؤخراً هي التي تلاحقني».

* * *

٤ ـ سأحميك من نفسك

كانت تلك المرأة مصدر إزعاج بالغ.

بعد ثلاثة أيام على رحيل جينا، وجد غاريت أنه ما زال يفكر فيها وفي جمالها الفتّان.. لقد أسر قلبه شعرها الأجعد، وعيناها الزرقاوان اللتان قلبتا كيانه قلقاً ورغبة.

إزعاج.. إزعاج.. إزعاج...

وراح يضرب أزرار الآلة الحاسبة على مكتبه ثم يدوّن الأرقام أمامه.. لقد استطاع أن يتجنب اللقاء بجينا في البلدة لكن ذلك لم يمنعها من التسلل إلى أحلامه في الليل، وإلى أفكاره في النهار. وما زاد الطين بلة هو أن القميص الذي ارتداه هذا النهار، هو نفسه الذي نامت فيه جينا قبل رحيلها صباح الأحد... هذا القميص لا يزال يحمل رائحتها الغامضة وكان كل نفس يتنفسه يجعله يتوق إلى مشاعر، يُستحسن له ألاّ يرغب فيها.

نعم، إنّها مزعجة تماماً ولم يستطع التخلص من تأثيرها رغم جهوده كلها.

وتناهى صوت ريلان وليزا إلى مسامع غاريت، فأعاده إلى الحاضر. ورحب غاريت بالتحول عن أفكاره تلك. كان أخوه يتجه إلى مشروع جديد في المدينة وبحاجة لأخذ نسخ عن خرائط المشروع. وكانت هذه

لا تزال مبعثرة في الغرفة الخلفية حيث كان غاريت يراجعها منذ فترة.

ترك غاريت الأوراق التي يعمل عليها، وغادر مكتبه متجهاً إلى غرفة الاستقبال. كان ريلان قد عاد إلى مكتبه الخاص وكانت ليزا جالسة خلف مكتبها تراجع كومة من سندات الزبائن وتجيب عن المكالمات الهاتفية.

وقف عابساً وراح ينظر إليها تقوم بعملها بكفاءة ولكنه لم يستطع تجاهل الإنهاك والتعب البادبين على وجهها. حتى الآن، لم يجب عن الإعلان الذي وضعه في الصحيفة سوى ثلاث فتيات تقدمن لإجراء المقابلة، ولم ترضَ ليزا عن أيّ منهنّ. وبما أنها استلمت أعمال السكرتارية في الشركة منذ كانت في الثامنة عشرة، افترض غاريت أن من الصعب عليها أن تسلم العمل إلى غريبة.

ولكن لا بد لها من القيام بذلك عاجلاً.

كان غاريت يلف الخرائط التي يحتاجها أخوه، عندما دخل هذا الأخير إلى الغرفة بمرحه الطبيعي. عندما استلم غاريت عمل الأسرة بعد وفاة والدهم، بقي ريلان على طبيعته المستهترة من ناحية النساء، والعمل، والحياة بشكل عام. ورغم أنه كان عاملاً نشيطاً وجديراً بالثقة، إلا أنه قليلاً ما كان يأخذ الأمور على محمل الجد، ولم يكن يزعجه شيء.

ـ هاي، يا أخ، «احزر» من رأيت في حانة «ليجر بوينت» الليلة الماضية؟.

وبدت على فمه ابتسامة ماكرة عريضة، وفي صوته نبرة كفيلة بإثارة فضول غاريت. وأجاب هذا وهو يلف الأوراق: «ليس لدي فكرة».

فشبك ريلان ذراعيه فوق صدره وقد بدا المكر البالغ على وجهه: «فتاتك جينا فيليبس».

اغتاظ غاريت لسماع هذا الكلام، فهي ليست من النوع الذي يمضي

سهرات نهاية الأسبوع في حانة ولكن عليه أن يقرّ بأنه لم يعرف جينا جيداً. ليس طبعاً إلى حدّ أن يعرف ما تفعله في أوقات فراغها.

ناول لفافة الرسوم إلى ريلان، وقال بما يستطيعه من عدم الاكتراث:

ـ جينا ليست فتاتي.

ربت ريلان باللفافة على كتف غاريت العريضة وأخذ يهز حاجبيه بمكر:

ـ أنا واثق من أن بإمكانها أن تكون كذلك، إذا أنت أحسنت التصرف.

عاد الغيظ يتملك غاريت، لكنه جاهد كي يبدو غير مبالٍ.

ـ أنا، بعكسك، يا ريلان، لا أحتاج امرأة في حياتي.

بدا التهكم عى وجه ريلان لسماعه هذا، ولمعت عيناه دهاءً بالرغم من طباعه المرحة:

ـ حسناً، ربما لو كان في حياتك امرأة، لما تملكك التوتر كما حدث في اليومين الأخيرين.

تمنى غاريت لو يغضب من أخيه لقوله هذا، لكن الواقع المحزن هو أن ريلان محق بشأن سوء طباعه مؤخراً. وكان هذا كله ذنب جينا... أمّا ذنبه فهو أنه سمح لنفسه بأن يتأثر بها.

سار إلى مكتبه، مصمماً على طرد هذه المرأة من أفكاره، ثم جلس وعاد إلى عمله. بعد لحظات، بدا ريلان عند العتبة ومن ثم دخل وهو يقول:

ـ ألا تشعر ولو بقليل من الفضول لتعرف ما كانت تفعله في «ليجر بوينت»؟

ـ في الواقع لا.

كان غاريت يكذب. ولأنه لم يستطع النظر في عيني ريلان، أبقى

رأسه منحنياً وتابع عمله وجلس ريلان أمام المكتب وتابع: «إنها تعمل في الحانة كنادلة».

تملكت غاريت صدمة هزت كيانه، ورفع نظره إلى أخيه.

كان واثقاً من أنه لم يسمع جيداً. وهز رأسه بعنف: «ماذا تفعل؟».

ـ إنها نادلة هارلان الجديدة.

وهذه المرة سمعه غاريت جيداً. وأضاف ريلان بسرعة: «لكنني ظننت أن أمرها لا يهمك».

ثم ابتسم ابتسامة انتصار لأنه أغاظ غاريت، واتجه نحو الباب.

ـ نعم، أمرها لا يهمني.

صاح بذلك في أثره لكنه ما لبث أن ندم على لهجته هذه التي كشفت الكثير، وتوتر فكه، مرغماً نفسه على تجاهل خروج ريلان.

لكن أخاه وقف في وسط الغرفة ثم التفت إليه:

ـ لا بد لي من القول إن جينا تبدو رائعة في الجينز والقميص القطني الضيقين.

قال ذلك واصفاً ملابس النادلات الرسمية المغرية.

ألقى غاريت القلم من يده ثم رفع رأسه عابساً. وقالت نظرته ما لم يقله لسانه:

ـ هل كنت تغازل جينا هناك؟

فرفع ريلان يده متجنباً غضب أخيه الشديد: «هيه... لم أكن الوحيد الذي لاحظ جمالها الرائع».

كان غاريت قد شعر بروعة جمالها وبعناقها الساحر لكنه لم يعرف كيف تجاوبت هي معه. والتفكير في رجل آخر يقترب منها بذلك الشكل ولّد في عروقه حرارة التملك، بشكل لا يبشر بالخير بالنسبة إليه. ولكنه أقنع نفسه بأن ما تفعله جينا لا يهمه.

وتابع ريلان كلامه: «يبدو وكأنها لم تعمل كنادلة في حياتها. أعني

أنها تتعلم بسرعة، لكنها في تلك الحانة المزدحمة تبدو في غير مكانها. وهي، بعكس بيكي، لا تعرف كيف تتصرف إزاء معاكسات الشبان».

- ومن الذي يعاكسها؟.

سأله غاريت بدون وعي. فهز ريلان كتفيه وكأن هذا غير مهم. ولكن الهزل كان يتراقص في عينيه، فأدرك غاريت أن أخاه يتعمد السخرية منه، فقال مزمجراً: «هيا، انطق يا ريلان. من هو؟».

- «بو» هو المذنب الأكبر.

قال ذلك عابساً مظهراً كراهيته لذلك الوضع.

- هو يظن أن من باب التسلية أن يستغل التهذيب والبراءة البادِيين عليها. لقد طلب هارلان من «بو» وجماعته الليلة الماضية أن يكفوا أيديهم وألسنتهم عنها، لكن «بو»، على الأخص، لم يكن يصغي إلى أحد.

تصلبت كل عضلة في جسم غاريت لذكر «بو» وبذل جهداً بالغاً ليذكّر نفسه بأنه ليس حارساً لجينا.

- وماذا تتوقع مني أن أفعل؟

- لا شيء، فقط فكرت في أنك ربما تحب أن تعلم ما الذي تفعله جينا.

ثم واجه ريلان نظراته وقد بدا الجد على ملامحه على غير عادة وهو يتابع:

- غاريت، جينا ليست من النوع الذي يعمل في حانة «ليجر بوينت». وأنت تعلم هذا بقدر ما أعلمه.

- أنا لست مسؤولاً عنها.

أخذ يردد هذه الكلمات مرة بعد مرة في ذهنه، ثم قال: «جينا فتاة ناضجة وليس من شأني أن أقلق عليها».

ألم تقل له هذا الكلام نفسه يوم الأحد قبل أن تغادر منزله؟ وتابع

يقول:

- إنها مسؤولة عن نفسها وحرة في أن تفعل ما تريد.

فقال ريلان متنهداً: «نعم. أظن أنك محق. فكرت في الانتباه إليها الليلة كيلا يزعجها «بو»، لكن لدي موعداً مع «إيما» ولن نذهب إلى «ليجر بوينت». لذا أظن أن جينا ستبقى وحدها».

التقط غاريت قلمه مجدداً، وتناول ملفاً موضوعاً على مكتبه رافضاً الطعم الذي دلاّه له أخوه، وقال:

- نعم، هذا صحيح.

تباً لريلان. أخذ غاريت يفكر في ذلك مضطرباً. لقد قصد أخوه شيئاً معيناً هذا الصباح في المكتب عندما أخبره عن عمل جينا الجديد وإزعاج «بو». من الواضح أن ريلان يرى أن جينا بحاجة إلى من يحميها، واعتقد أن غاريت هو الشخص المناسب.

ربما ما كان غاريت ليمانع بهذه القوة لو أنه لم يعانِ الأمرّين في زواجه السابق. فقد علّمته خبرته السابقة أن زج نفسه في مشاكل امرأة أخرى يسيء إلى حياته الهادئة المستقرة التي يعيشها مع ابنته.

أوقف شاحنته في موقف حانة «ليجر بوينت» وكان هذا المكان الليلي الشعبي مزدحماً بقدر ما كان عليه ليلة السبت. وعرف غاريت أنه سيمضي هذه السهرة أيضاً محاولاً أن يحافظ على شرف جينا من أسوأ الزبائن الذين يرتادون الحانة.

عاد يلعن تدخّل أخيه ويتذمر من ضعفه لسماحه لهذه المرأة بأن تؤثر فيه، ثم ترك شاحنته وسار متوجهاً إلى الحانة.. كان قد أقسم هذا الصباح ألاّ يتورّط مع جينا ومجازفاتها في اختيار هذه المهنة، وألا يهتم بمآزقها فهو في نهاية المطاف ليس حارسها الشخصي.

ومع ذلك، لم يفكر طوال النهار في أحد سواها، وعند العصر تملكه الشعور بالذنب. ورغم عدم رغبته في أن يكون مسؤولاً عن هذه

العروس الهاربة كان يعلم أنه إذا حدث لجينا شيء كان بامكانه أن يمنعه، فلن يسامح نفسه على تجاهل أخيه، ودوافع الرجولة فيه.

وعندما خرج ريلان مع «إيما» لتمضية السهرة، باشر غاريت عمله على الفور. فبعد أن اتصل بليزا لكي تهتم بتشيلسي لعدة ساعات، أخذ إليها ابنته ثم توجه إلى «ليجر بوينت».

والآن، بعد أن أصبح هنا، أخذ يتساءل مجدداً عن سلامة عقله الذي يبدو مشوشاً جداً في الآونة الأخيرة.

دخل إلى الحانة ثم شمل المكان بنظراته. وعلى الفور لمح جينا ببنطلونها الضيق تتجه نحو الغرفة الصغيرة حاملة صينية الطلبات.. لقد عرفها من شعرها الوحشي الذي حاولت عقده عند رقبتها. تلك الخصلات الثائرة التي تمثل ميزة الإغواء الفريدة الثانية بعد شامة الحسن على شفتها العليا.

عندما وصلت إلى المائدة، انحنت لتخدم الثاني الجالس عليها وإذا بضغط دم غاريت يرتفع، إذ كما قال ريلان كان معظم الرجال الموجودين في الحانة ينظرون بإعجاب إلى جسم جينا المثير.

كانت هذه المرأة مثيرة للغرائز بطبيعتها، سواء بمنظرها أم بتصرفاتها. ومع ذلك كانت تبدو غافلة تماماً عن مفاتنها، وراحت الأنظار تلاحقها وهي تنتقل من مائدة إلى أخرى.

نفض عنه مشاعر التملك التي أخذت تعتريه، وأخذ يبحث عن مكان يجلس فيه. وعندما رأى مائدة صغيرة في زاوية يمكنه فيها أن يتوارى نوعاً ما عن الأنظار شق طريقه بين الجموع المرحة وتحضر لليلة طويلة من المراقبة.

وبينما كان ينتظر «بيكي» أو «جينا» لتأتي وترى ما يطلبه، أخذ يتفحص الزبائن. وضاقت عيناه عندما لمح «بو هاردينغ» جالساً مع مجموعة من الفتيان.

كان الرجل ذا صوت عالٍ كريه، حتى أن غاريت استطاع سماع تعليقاته الفظة من مكانه البعيد هذا.

واستيقظ غاريت من تأملاته مجفلاً عندما سمع صوتاً ناعماً، فرفع بصره وإذا به يرى جينا بجانبه، وكانت تمسك صينية مستديرة صغيرة بينما ارتسمت ابتسامة ودود على شفتيها، فلم يضيع وقتاً بحديث مهذب: «جينا.. ما الذي تفعلينه هنا؟».

فأجابت ببساطة: «أنا أعمل».

ولم تزعجها نبرة صوته الخشنة وهي تخرج دفتراً وقلماً من جيب مئزرها، ثم تعود للنظر إليه مستعدة لتدوّن ما يطلبه.

ـ ماذا تودّ أن تشرب؟

أجاب بلهجة آلية: «الصودا» ثم عاد يسألها:

ـ لماذا أنت هنا؟

سجّلت طلبه على الدفتر وهي تقول:

ـ لأن هارلان كان بحاجة إلى نادلة أخرى، وأنا كنت بحاجة إلى عمل. ولأن الأجر جيد.

ثم وضعت فوطة على المائدة أمامه.

ـ وإذا شئت المزيد من الأسباب الشخصية فلك تلك مثلاً: عليّ أن أدفع الإيجار لصاحبة البيت «إيلاڤي»، وعليّ أن أبحث عن سيارة مستعملة فلا أضطر للتنقل من البيت إلى العمل سيراً على الأقدام. أضف أن لديّ «فواتير» عليّ تسديدها. والوظيفة، ببساطة، تعني شيكاً مدفوعاً.

كان جوابها منطقياً مبرراً، وشجاعتها لا تُقهر. ما جعل غاريت يشعر أن عليه أن ينهض ويخرج من المكان ويترك جينا تفعل ما يحلو لها، لولا ذلك الإحساس الداخلي بالشهامة الذي جعله يثبت في مكانه ويقول:

ـ العمل في الحانات، من بين كل الأماكن، غير مناسب لك.

فرفعت حاجبيها الأنيقين ساخرة:

ـ وحسب قولك أيضاً، السكن في هذه المدينة الصغيرة لا يناسبني. ما الفرق بين عملي هنا أو في أي مكان آخر في دانبي؟

وتنهد غاريت، عاجزاً عن النكران بأنه هو من أعطاها هذا الانطباع عنه:

ـ أنت تعلمين ما أعنيه، يا جينا. فهذه الحانة المزدحمة لا تناسب سيدة محترمة مثلك، سواء كانت عاملة أم غير ذلك.

لم تفارق تلك الابتسامة الهادئة شفتيها ولكنّ إذعاناً مفاجئاً بدا في نظراتها وهي تقول:

ـ غاريت، أحياناً نُرغم على القيام بأعمال قد لا نحبها، فقط لنوفق بين دخلنا ونفقاتنا. وهذه ليست المرة الأولى التي أقوم فيها بعمل لمجرد أن ليس أمامي بديلاً عنه. وبما أنني لا أرغب في العودة إلى المدينة، وخياراتي محدودة، فأنا أقبل بسرور ما يُقدّم إلي.

فقلب شفتيه: «جينا...».

فقاطعته قبل أن يعترض مجدداً.

ـ أشكرك على اهتمامك بي، لكنني منشغلة جداً الآن ولا وقت لديّ لمناقشاتك. هناك طلبات عليّ أن أحضرها.

واستدارت عائدة، فتركها تذهب وقد تملكه إحباط بالغ لعدم تجاوبها. اضطربت مشاعره وازداد غيظه عندما أحضرت «بيكي» شرابه بدلاً من جينا وهي تخبره بأنها هي التي ستتولى إحضار بقية طلباته الآن.

وهكذا أمضى الساعتين التاليتين يشرب الصودا الذي طلبه، ويراقب جينا التي حرصت على تجنبه، و «بو» الذي ما انفك عن طلباته، تارةً له وتارةً لمجموعته.

وكان لسانه يزداد انحلالاً وبذاءة أكثر فأكثر. حتى تنبيه هارلان له

لم يجعله يخفف من تعليقاته وغزله السافر للنساء من الزبائن والنادلات على حد سواء.

ثم ارتكب «بو» غلطة عندما لمس جينا وهي تحضر الطلبية... وكان عمله هذا من الإزعاج وعدم التهذيب بحيث طلبت منه جينا بأدب أن يكفّ عن ذلك، فاعتبر في ذلك تحدياً له.

أمسك بذراعها مسقطاً الصينية في يدها، ثم شدّها نحوه. واتسعت عينا جينا مذهولة وهي ترى نفسها ملتصقة بهذا الرجل، بينما أخذ هو وجماعته يقهقهون بخشونة لعمله الوقح هذا.

انفجر غاريت غيظاً، وبدون أن يعي ما يفعله، أو يتخيل ما قد يثيره دفاعه عن جينا، قفز من مقعده واجتاز القاعة المزدحمة بخطوات واسعة. ومن طرف عينه لمح هارلان يدور حول المقصف ليعالج الموقف بنفسه، لكن غاريت لم يمنح صاحب المكان الفرصة لذلك.

وعندما وصل غاريت إلى مائدة «بو» كانت جينا قد وقفت وقد بدا عليها الذلة والتحقير لما حدث. واحمرّ وجهها ارتباكاً وخجلاً وهذا ما زاد في غضب غاريت وحقده على بو هاردينغ.

وبمبادرة منه لحماية جينا، وقف أمامها مواجهاً «بو» الذي رفع نظره إليه بوقاحة وقد بدا أن هذا الرجل لا يهاب غاريت اطلاقاً.

ـ إن لمست هذه السيدة مرة أخرى وجدت نفسك موقوفاً بتهمة التحرش.

كان صوت غاريت يحمل تحذيراً واضحاً.

ـ ماذا؟

وحاول «بو» أن يقف، ثم نفخ صدره وقال:

ـ وهل يمكنك أنت، أو حتى جيش معك، أن يمنعني، يا بلاكويل؟

اشتدّت قبضتا غاريت غضباً، فهو يحتقر الرجال الذين يتهجمون على النساء الضعيفات، و«بو» أحدهم. ولم يشأ غاريت أن يفكر في ما

كان يمكن لعديم الأخلاق هذا أن يفعل لو أنه لم يسرع إليه ليردعه.

وقال له بصوت خافت مهدد يهابه أي رجل ذكي:

ـ الشخص الوحيد الذي عليك أن تخاف منه هو أنا.

التوت شفتا بو: «ومن سيدافع عنها في غيابك؟».

ثار غضبه لهذا التلميح والتهديد المبطن، فتقدم نحو «بو» ليدفعه نحو الجدار ويلكم وجهه المتغطرس.

ولكن قبل أن يصل إليه، كان هارلان قد وقف بين الرجلين وهو يقول بحزم.

ـ هدوءاً، يا شباب.

تراجع غاريت على الفور، شاعراً بالإشمئزاز من نفسه لدخوله في مشاجرة في حانة هارلان.

وأشار هارلان إلى بيكي التي كانت واقفة تتفرج مستمتعة كبقية الزبائن، وأمرها قائلاً:

ـ أحضري القهوة «لبو» ولكل من على هذه المائدة.

ثم نظر إلى «بو»:

ـ وبعد ذلك، أريد منك ومن أصدقائك أن تغادروا الحانة بسلام وإلاّ ناديت الشرطة. الخيار لكم.

رغم أن «بو» عاد يجلس دون نقاش، منتظراً القهوة، فقد رمق غاريت بنظرة عدائية تلمح إلى أنه هدأ مؤقتاً فقط.

تباً لهذا كلّه! هذا ما راح غاريت يفكر فيه وهو ينظر إلى الرجل الآخر بعينين ضيقتين تماثل نظرته عدائية.

أدرك غاريت من نظرة بو الواثقة المتعجرفة، أنه سيستمر في معاكسة جينا طالما أنها تعمل في هذه الحانة.

واعترف على مضض أن ريلان محق في قوله إن جينا بعيدة عن مكانها الطبيعي وإنها ستبقى فريسة سهلة لبو وجماعته، ولأي رجل آخر

يريد انتهاز عدم خبرتها كنادلة في حانة.

أومأ هارلان برأسه راضياً لعودة الأمور إلى مجاريها. ثم استدار نحو جينا التي كان تحاول استعادة هدوئها ورباطة جأشها.

ـ يمكنك يا جينا أن تأخذي الشراب الذي تركتُه على المقصف، إلى المائدة التي في الزاوية.

حوّلت عينيها عن «بو»، ثم تنفست بعمق لتستعيد هدوءها.

ـ لابأس.

وإذ رأى غاريت وراء قناع القوة الذي تلبسه، ما يشير إلى التشكك وعدم الإطمئنان، تملكه شعور عنيف لا يمكن وصفه.. شعور رفض غاريت أن يحلّله خوفاً مما يتضمنه. كما أنه لم يشأ أن يمضي الوقت في دراسة القرار الذي كان على وشك اتخاذه لأجل جينا.

انحنت تلتقط الصينية التي سقطت منها أثناء مواجهتها مع بو، ولكن قبل أن تمتثل لأمر هارلان، أمسك غاريت بمعصمها يمنعها من الذهاب. تسارعت دقات قلبها تحت ضغط أصابعه الخفيف، وتلاقت نظراتها المتعجبة بنظراته الحاسمة.

أخذ الصينية من يدها المرتجفة ووضعها في يد هارلان وهو يقول له بإيجاز:

ـ عليك أن تبحث عن نادلة أخرى، لأن جينا ستترك العمل.

شهقت جينا بصوت تملّكه الانفعال. وقبل أن تستعيد أنفاسها وتعترض على ما قاله، سارع في إخراجها من الحانة بخطوات سريعة كادت لا تتمكن من اللحاق بها.

أسرع غاريت بها نحو شاحنته. كانت المنطقة مضاءة، إنّما خالية إلا من أصوات الطيور والحشرات وهوام الليل.

عندما وصلا إلى شاحنته بالضبط، ضربت الأرض بقدميها بشكل مفاجيء، فانزلق حذاؤها على الأرض المبلطة ما جعلهما يقفان، ثم

نزعت يدها من يده وهي تقول ثائرة: «ما الذي تفعله؟».

فقال يؤنبها بطيش:

ـ أوليس هذا واضحاً؟ أنا أنقذك من نفسك.

حدقت إليه غير مصدقة:

ـ لا أتذكر أنني طلبت منك، أو من أي شخص آخر أن ينقذني.

وأخذ صدرها يعلو ويهبط، وهي تتقدم نحوه وتطعن صدره بإصبعها تعبيراً عن غضبها البالغ.

ـ كان التصرّف الذي قصدت به لفت الأنظار في الحانة همجياً ورجعياً، وأنا لا أريد منك أن تقرر عني ما يمكنني تقريره بنفسي، أو أن تعتبر نفسك مسؤولاً عني.

تصلب جسده فجأة. كانت قريبة جداً منه وقد ساد بينهما التوتر. وتدفقت في كيانه مشاعر ملتهبة حاول جاهداً أن يكبحها، وعادت تتردد في ذهنه تلك الكلمات.

إزعاج... إزعاج... إزعاج...

ـ ما رأيته دفعني للتدخل.

وضع يديه على وركيه ودنا من وجهها، لكنها لم تتراجع كما كان يأمل، بل بقيت في مكانها بعناد بينما تابع هو يقول: «لا يمكنني أن أكون هنا كل ليلة كيلا يتحرش بك «بو» أو غيره من الزبائن الفاسدين».

ـ وهل طلبت أنا منك ذلك؟

ولم تنتظر جوابه لأن كليهما يعلم الجواب.

ـ أظننا اتفقنا على ألاّ تعتبر نفسك مسؤولاً عني.

ـ راقبتك الليلة مدة ساعتين، يا جينا، وأنت تتجنبين المعاكسات وتعليقات الزبائن، وتحاولين المحافظة على الطلبات التي تحملينها في ذلك الزحام. العمل في هذه الحانة لا يناسبك والجميع يعرف هذا ما عداك.

مرّر أصابعه في شعره لكن هذه الحركة لم تخفف من المشاعر المتأججة في كيانه.

ـ ربما بالغت في تصرفاتي، لكنني غير نادم على إخراجك من هناك. لقد فعلت ذلك لأجل مصلحتك.

ولأجل راحته النفسية.

ـ وما أدراك بمصلحتي؟

سألته هذا وهي تلقي بنفسها إلى الخلف متحدية. وكان ضوء القمر يبرز ملامحها الرائعة ويزيد من لمعان عينيها.

ـ تباً لك يا غاريت، ما أدراك بما أريده أو أحتاجه؟

كان في لهجتها المتحدية تعنيف ساخر ولكن لم يخطر له في تلك اللحظة سوى ما أراده، وأنكره على نفسه منذ الليلة التي عرفها فيها. أحاط خصرها بذراعه وجذبها إليه بينما أمسك ذقنها بيده الأخرى.

تشابكت نظراتهما، فوضعت يديها على صدره مجفلة، إنما من دون أي خوف. ومع كل نفس كانا يزفرانه، كان التمرد يتوهج في أعماق عينيها جرأة صامتة أثارت أحاسيسه ومشاعره... المطالبة... التملك...

كان يتلهف إلى معانقتها، وقبل أن يغيّر رأيه أو تدرك هي نيته، أخذها بين ذراعيه معانقاً. وتأوهت، لكنها لم تقاوم أو تحتج بل استكانت إليه ثم تسلل بيده إلى رقبتها وشدّد من ضمها إليه فتراخت بين ذراعيه وتركته يعانقها... عناقهما الأول كان عبارة عن عناق شكر أما هذا العناق فكان شيئاً آخر.. وكان مشبعاً بالمشاعر والشوق والإحساس بالرضا.. وشعر أنه لن يرتوي أبداً من نبع جمالها وأن أحاسيسه لن تشبع من هذا العناق. وكان اقترابها منه على هذا النحو يؤجج النار التي استعرت في دمه.

إزعاج... إزعاج... إزعاج...

عاد غاريت إلى رشده عندما تناهى إلى سمعه صوت الضحك من داخل الحانة، وبآهة خافتة، تراجع خطوة إلى الخلف وقد أذهله مدى تجاوبه معها.

رفعت بصرها إليه وقد بدا عليها نفس ذهوله وكان عناقه قد بدّد الغضب الذي اعتراها منذ لحظات. وشعر غاريت بأن ليس لديه فكرة عما تريده هذه المرأة، أو ترغب فيه، وابتدأ يشك في أن هناك من يعرف ما تشتاق جينا فيليبس إليه أو ترغب فيه.

وكان هو مذنباً مثلهم. إذ لم يطلب منها إذناً لهذا العناق. لا. بل عانقها بإرادته واختياره، ورغم أنه لم يصدر عنها أي اعتراض إلا أنه لا يحق له التصرف بهذه الوقاحة، لا سيّما أنه لا يعرف ما إذا كانت جينا لا تكنّ مشاعر عميقة نحو خطيبها السابق.

وإذ رأى أن تحليله لهذا الوضع قد طال، أمسك بذراعها برفق وأشار إليها بالصعود إلى المقعد الأمامي من الشاحنة وهو يفتح الباب لها.

ـ اصعدي يا جينا، سأعيدك إلى نزل «إيلاني».

استجابت دون نقاش، وكان هذا كافياً لينبىء غاريت بأن عناقه أحدث فيها انقلاباً وأنها ما زالت تحاول أن تصحو مما حدث لها.. أغلق الباب خلفها، ثم صعد إلى مقعده وأخذ نفساً عميقاً ليهدىء من أعصابه ومن المشاعر التي استولت عليه، لكنه لم يستطع أن يبدد تلك الرائحة الأنثوية التي فاحت حوله.

أطلق آهة طويلة ممزقة، عالماً بأن أمامه ليلة طويلة من الأرق.

* * *

٥ ـ أحتاجك...

راحت جينا تفكر أثناء عودتها إلى النزل أنّ ليس عليها أن تدعه يعانقها فعناق شكر عادي هو شيء، ومثل هذا العناق العاصف الذي لم تكن مستعدة له هو شيء آخر.

فما كانت لتحلم أبداً بأنها ستنطلق معه على سجيتها بهذا الشكل.

بعد سنوات من كبح مشاعرها تحت ستار الترفع والحنكة والتهذيب والحشمة لكي تبدو لائقة اجتماعياً، عرفت أخيراً ما تعنيه حرارة العاطفة إذ استمتعت بكل لحظة بعناق غاريت. وهذا الاكتشاف بالذات كان مذهلاً بهيجاً إنما مخيفاً، فهو يهدّد استقرارها العاطفي لأنه يخالف كل ما نصحتها به أمها.

أغمضت عينيها، متذكرة تلك المحاضرات المتكررة بوضوح تام. لقد أمضت أمها حياتها تفتش عن رجل يرعاها. لكن اختيارها لم يكن يوماً في مكانه، إذ كان صديقها في كل مرة يستغلها ويجرح كرامتها ثم يتركها وحيدة، وعندما بلغت جينا الخامسة عشرة، وبدأ الفتيان يلاحظون جمالها، استعملت أمها خبرتها مع الرجال لتنصح ابنتها بألاّ تفعل مثلها.. لم تكن أمها «جودي» محظوظة في الحب يوماً فعلّمت جينا أهمية الاحترام واتخاذ قرارات عملية في ما يتعلق بالجنس الآخر، وبالحب والمشاعر التافهة، فالحب والعلاقات مع الرجال لن تصيبها إلا

بتحطم القلب. حذرتها أمها بألا تسمح لأحد بأن ينزع عنها حشمتها وكرامتها أبداً. وقد خبرت جينا هذا بنفسها حين قبلت بوظيفة غير محترمة لكي تتمكن من تسديد نفقات علاج أمها.

ذلك الإثم بالذات لاحقها عند مذبح الكنيسة يوم زفافها ما جعل شيلدون وأسرته يتملكهم الذهول والغضب وعدم التصديق... ثم انتابها شعور بالذل والعار لما اقترفته، فقد أدركت أنها لا تصلح لشيلدون لأن ماضيها قد يدمّر سمعته وربما مهنته.

وارتجفت للذكرى الفظيعة، عالمة بأن ماضيها سيلاحقها دائماً ليفسد عليها السعادة التي تتلهف لبلوغها ويحرمها من العثور على رجل يحترمها بما يكفي ليعرض عليها الزواج. كان هذا كل ما تريده. لكن الخوف من فضيحة أخرى أصبح يشكل تهديداً دائماً لها. فأي رجل يرغب في امرأة تخفي مثل هذا السر الشائن؟

من المؤكد أنه ليس رجلاً شريفاً محترماً مثل غاريت. توهجت وجنتاها لذكرى السعادة التي شعرت بها في موقف السيارات. وفتحت عينيها وحدقت من النافذة إلى ظلام الليل. كانت تعلم أن عليها أن تشعر بالخزي من سلوكها المخجل. لكن الحقيقة هي أنها كانت متلهفة إلى عناق غاريت، ولم يخطر ببالها قط أن تحتج أو ترفض.

لم تخالجها قط مثل هذه المشاعر المدمرة، ولا حتى مع شيلدون الذي لم يكنّ لها سوى العطف.

ورغم أن عناق غاريت كان نتيجة نوبة غضب، إلا أنه لا سبيل إلى إنكار المشاعر التي عصفت بينهما لاسيما رقة غاريت ودفئه. وتملكتها رجفة لمجرد التفكير في ما جرى بينهما، وحاولت جاهدة نسيان الأحاسيس العنيفة.

ـ هل أنت بخير؟

اخترق صوت غاريت العميق الصمت. فاستيقظت من أفكارها

لتدرك أنهما توقفا أمام نزل «إيلاني».

نظرت ناحيته لتجد الشرود والخشونة قد ارتسما مجدداً على ملامحه الجادة. ولكن هذا التحول السريع من رجل حساس للغاية إلى رجل جاف بهذا الشكل جعلها تشعر بالإحباط، لاسيما بعدما حدث بينهما.

قالت بجفاء: «لطف منك أن تسأل عن حالي، خاصة بعدما فقدت وظيفتي بسبب موقفك في الحانة. وبعدما يعرف الجميع بمهزلة الليلة، سيكون كلانا على كل شفة ولسان».

فتمتم بصوت منخفض: «لن تكون المرة الأولى التي أكون فيها على كل شفة ولسان في هذه البلدة».

قطبت جبينها وأخذت تتفرس في وجهه وفكه المتوتر. ودفعها الفضول إلى أن تسأله:

ـ ما الذي تعنيه؟

تصلبت يداه على عجلة القيادة ونضحت عيناه بمرارة لم تفهمها جيداً.

ـ كان لزوجتي طريقة خاصة في لفت الانتباه وكنت أنا دوماً موضوع الأقاويل.

لم يضف شيئاً على نتف المعلومات هذه. ولكن بدا واضحاً لجينا أن زواج غاريت كان مضطرباً. وراحت تقاوم رغبتها في سؤاله عما حدث بالضبط بينه وبين زوجته ليصبح حذراً من النساء إلى هذا الحد، خصوصاً منها هي. لكن جوابه لن يغير شيئاً بالنسبة إلى كليهما لأن ذلك العناق كان هفوة لن تتكرر.

وقالت بنعومة: «لم أكن مخطئة بالنسبة لما حدث في الحانة، يا غاريت. فأنا لم أطلب منك أن تكون حارسي. كل ما أحاول أن أفعل هو الاعتياد على هذا العمل لأحصل على بعض المال، لكنك صعّبت الأمور عليّ».

تنهد، ثم نفث نفساً طويلاً خف معه توتره: «سأتحدث إلى هارلان ليعيدك إلى العمل. إذا كان هذا ما تريدينه».

عضت جينا شفتها إزاء اقتراح غاريت الذي ينمّ عن إحساسه بالواجب. وعلى الرغم من أنها غضبت في البداية بسبب تصرفاته، تأثرت داخلياً إذ لم يسبق أن اهتم بها شخص من قبل إلى حد أن يتصرف بهذا الشكل لكي يحميها... لكي يجعلها تشعر بالأمان.

وإذا أرادت أن تكون صادقة مع نفسها، فعليها أن تعترف بأن العمل في الحانة لا يناسبها. ولقد أدركت ذلك منذ الطلب الأول الذي قدمته إلى الزبون. ولكنها لم ترضَ بهذا الوضع إلاّ لتحقق هدفاً معيّناً ألا وهو تسديد ديونها. وهي مستعدة للقيام بأي عمل، مهما كان مقززاً لكي تتمكن من إعالة نفسها بنفسها طالما أن هذا العمل شريف وآمن.

ولكن هارلان لم يحاول منع غاريت أو منعها من مغادرة الحانة، وهذا ما جعلها تعتقد أن مدير الحانة يوافق غاريت على أن ينهي عملها في حانته.

فتحت باب السيارة بينما راحت عيناه السوداوان تنظران إليها، ملتمساً جواباً عما عرضه عليها بشأن متابعة العمل لدى هارلان... إذا كان هذا ما تريده...

وهزت رأسها: «كل ما أريده، وكل ما أردته في حياتي هو (الانتماء).. لا أتوقع منك أن تفهم حلمي البسيط هذا، يا غاريت، لاسيما أنك من أسرة متقاربة متحابة. أمّا أنا فلم أتمتع قط بهذا الإحساس. ولا حتى مع شيلدون».

وكان أكثر ما تخشاه أن يمنعها ماضيها من الحصول على ذلك النوع من الأمان والسعادة في المستقبل. وتابعت تقول: «أنا وحدي الآن، ولا أريد الاعتماد على أحد في أي شيء، ما لم أكن مضطرة لذلك. إنني أحاول أن أعيش باستقامة وأحاول أن ألملم شتات حياتي، وكل ما أطلبه

هو أن تدعني أقوم بذلك هنا، في دانبي».

ومن ثم ترجّلت من الشاحنة واتجهت إلى المنزل، شاعرة بنظرات غاريت تلاحقها في كل خطوة تخطوها.

كل ما أريده هو الانتماء. أخذت كلمات جينا هذه تتردد في ذهن غاريت، وتثقل ضميره، وتزيد من شعوره بالذنب.. هذا الشعور الذي لم يفارقه منذ أن ترجّلت جينا من سيارته أمام منزل «إيلاڤي» قبل ثلاثة أيام. نظر إلى أخيه ريلان، وهما يتناولان عشاء يوم الأحد في بيت ليزا، وفكّر أنه لولا تحذير أخيه، لما أصبحت جينا في هذا المأزق.

قال له متهكماً: «فكرتك النيّرة عن مراقبة جينا نجحت تماماً، يا ريلان».

لم يبد على ريلان أي ارتباك وهو يدهن الخبز بالزبدة: «لم أقل لك قط أن تخرج جينا من عملها».

قالت ليزا مدلية برأيها هي الأخرى: «ما كان لجينا أن تعمل في مكان كتلك الحانة على أي حال».

ابتسم ريلان لأخته موافقاً: «هذا بالضبط ما حاولت قوله لغاريت. لكنه لم يصغ إلي».

فقال غاريت وهو يبعد فنجان تشيلسي عن حافة المائدة كيلا يقع:

ـ بل أصغيت إليك، ولهذا السبب بقيت دون عمل.

فقال دوين زوج ليزا وهو يتناول صحن البطاطا:

ـ تصوّر ما كان ليحدث لو لم تكن هنالك تلك الليلة.

فهو لا يثق ببو. ولا أحد يعرف إلى أي مدى كان ذلك الرجل ليسترسل. لكن حماية جينا أمر، وجعلها تترك عملها أمر آخر. كان تصرفاً بالغ الغطرسة من جانبه... قراراً فورياً اتُخذ من وحي اللحظة، وهو ما أخذ يندم عليه يومياً بقدر ندمه على ذلك العناق الذي تبادلاه.

وما هو أسوأ من شعوره بتسببه بخسارة جينا عملها، هو شعوره

بالمسؤولية الذي يهدّد حياته الهادئة المنعزلة... ذاك التصور الذي يسبب له توتراً دائماً في معدته لأنه بات يدرك أن هذه الأحاسيس ستسبب له حزناً وألماً استطاع تجنبهما منذ موت انجيلا، زوجته السابقة.

ضغطت ليزا على ذراعه برفق، قائلة:

ـ أنا أعلم أنك لست مسروراً بنتيجة ما حدث، يا غاريت. لكن ما قمت به هو عين الصواب.

وهو دوماً يقوم بعين الصواب.

كانت أخته تعرفه جيداً. وكذلك أسرته بأجمعها. فمنذ وفاة والده، أصبح المسؤول عن الأسرة وعن ادارة المنزل، وحماية من يرعاهم فتأصّلت فيه غريزة الحماية والمسؤولية، لكنه لم يتكهن قط إلى أي مدى ستقوده هذه الغريزة إلى الشرك الذي نصبته له أنجيلا. لقد تعلم مما جرى له معها، أن العمل الصائب لا يكافىء صاحبه دائماً في النهاية.

لقد أعطى... وأنجيلا أخذت. كافأته بخداعها، فحوّلته من رجل يثق بالآخرين إلى شخص يحذر من النساء جميعاً، بما في ذلك جينا فيليبس التي لديها طرقها في هزم دفاعاته. فهي تتمتع بشفافية جعلته يصدق أنها حقاً كما تبدو... امرأة تبحث عن مكان تشعر فيه بالانتماء.

لكنه ما زال يجهل ما جعلها تهرب يوم زفافها. وهذا الغموض كان يضايقه ويجعله يتساءل عما عساه يكون ذلك السر الذي تخفيه والذي دفعها للهروب.

ـ أتعلم أن هناك طريقة تصلح بها كل هذه الأمور؟

ـ كيف؟

سأل غاريت أخته، ناظراً إلى عينيها المتألقتين. اتسعت ابتسامتها وهي تجيب: «لم تستخدم بعد بديلة عني في المكتب...».

فقاطعها فجأة بخشونة: «لا».

كان يعرف بالضبط ما الذي تقصده، ولم يشأ أن يتورط في مشروعها.

ـ لكن جينا مناسبة تماماً لذلك. أذكر أنك أخبرتني أنها كانت سكرتيرة في سانت لويس...

ـ لا.

فقطبت جبينها لموقفه العنيد هذا: «ولِمَ لا؟».

وحدقت إليه العيون متسائلة، بينما كان هو يفكر في أن هذه المرأة ستدمر عقله وجسده تماماً. وحك ذقنه ثم استقر رأيه على قول الحقيقة مع بعض التعديل.

ـ لأن فيها إلهاءً لي أكثر مما أريده أو أحتاجه.

وأغاظته ضحكة ريلان الخافتة وهو يقول: «هذا ليس بالأمر السيء».

حملق غاريت في أخيه، وانتبه إلى أنه غالباً ما أصبح يفعل ذلك، وهو ناحية أخرى من تأثير جينا فيه إذ جعلته يشعر بالغيرة التي لم يعتدها من قبل.

ـ دع عنك هذا، يا ريلان.

ـ إنها فكرة رائعة، يا غاريت.

قالت ليزا هذا وحبست أنفاسها بعد أن رفسها أحد التوأمين في بطنها رفسة قوية سريعة، مذكّراً إيّاها باقتراب موعد الولادة.

وأخذت تمرّر يدها على بطنها وهي تتابع.

ـ جينا، في الواقع، يمكنها أن تنوب عني أيضاً في رعاية تشيلسي عند العصر يومياً بعد عودتها من المخيّم الصيفي بدلاً من أن تحضرها إلى المكتب معك.

ـ أريد أن ترعاني جينا.

قالت تشيلسي هذا باللهفة نفسها التي أبداها بقية الجالسين إلى

المائدة.

ـ أرجوك يا «بابا».

أخذ غاريت يدعك صدغه الذي وخزه الألم، وقد شعر بأنه بدأ يفقد السيطرة على الأمور.

لم يشأ الموافقة على ما يراه أفراد أسرته مناسباً، إذ يعتقد أن بإمكانه وحده أن يقرر ما هو الأفضل بالنسبة إليه. والأفضل له ليس جينا فيليبس بكل تأكيد.

ولسوء الحظ، دفعه ضميره وشعوره بالذنب للاقتناع بما تقترحه أسرته. كان يكره ذاك الشعور بالحماية الذي تثيره في نفسه، ولعل أكثر ما يكرهه هو انجذابه إليها، لكنه لم يعتد قط التهرب من المسؤولية. وبما أنه المسؤول عن خسارة جينا عملها في «ليجر بوينت»، فأقل ما يمكنه فعله هو تقديم عمل لجينا في شركته قبل الظهر ومع تشيلسي بعد الظهر، إلى أن تتمكن أخته من العودة إلى العمل. كانت عملية رابحة من كل النواحي شرط ألا يعانقها مرة أخرى.

ألقى بفوطته مبعداً عنه عشاءه الذي لم يأكل نصفه، وهو يقول مستسلماً:

ـ لابأس. لقد انتصرتم. سأمرّ بنزل «إيلاڤي» في طريق العودة وأعرض العمل على جينا. ولكن هذا الإجراء مؤقت ريثما تجد جينا عملاً آخر، أو تعود ليزا من إجازة الولادة.

قالت أخته وقد بدا عليها السرور البالغ: «هذا ممتاز».

هتفت تشيلسي، وهي تقفز بحماسة في مقعد الشاحنة الأمامي..

توقف غاريت أمام نزل «إيلاڤي» وهو ينظر إلى حيث تشير ابنته. وبالفعل كانت جينا أمام النزل تسقي الأزهار، متوقفة بين الحين والآخر لتقتلع عشبة طفيلية أو تنزع ورقة زائدة.. كانت الساعة قد تخطت السابعة بقليل، والجو أكثر برودة مما كان عليه في النهار.

كانت ترتدي ملابس صيفية مناسبة، تكهَّنَ بأنها اشترتها من متجر الثياب المستعملة الذي أرسلها إليه. واضطر للاعتراف بأنها تناسبها تماماً وتظهر مفاتن جسدها. فالقميص القطني البسيط كان معقوداً عند خصرها، والسروال القصير يظهر تينك الساقين الطويلتين الرشيقتين اللتين لا تفارقان أحلامه. كانت حافية القدمين وكانت تبدو مذهلة.

أطفأ المحرك وهو يحاول التخلّص من هذه الأفكار. ولكن لسوء الحظ، عجز عن مقاومة تلك الأحاسيس التي أثارتها في نفسه، وبالرغم من كل الدروس التي ردّدها مراراً وتكراراً على نفسه كي يبقى بعيداً عن هذه المرأة، كان فيها شيء يثير فيه مشاعر يعلم أنها لن تؤدي إلا إلى المشاكل، وحبس مشاعره خلف قفل ومفتاح هو أمر بالغ الأهمية خاصة وهو مضطر للعمل معها ومواجهتها يومياً هذا إذا قبلت عرضه.

نزلت تشيلسي من الشاحنة، وهي تلوّح لجينا بيدها، ثم اندفعت نحو الفناء، وشعرها الأشقر يتطاير على كتفيها:

ـ مرحباً... جينا!.

ـ مرحباً تشيلسي.

وضعت جينا المرشة جانباً وهي تبتسم برقة لابنة غاريت ما أثار الحسد في نفسه.

ـ يا لها من مفاجأة رائعة!

بدت تحيتها مخلصة، وسعادتها برؤية تشيلسي صادقة.

أخذ يصغي إلى حديثهما وهو يجتاز الممر على مهل، بعكس ابنته. بدت له الاثنتان منسجمتين تماماً، فتأكد أن بإمكانه الاعتماد على جينا لترعى ابنته وتكون صديقتها في الوقت نفسه.

ـ أنت محظوظة جداً لأنك تعيشين هنا مع السيدة «إيلاڤي».

وأخذت تشيلسي تتشمم الهواء وكأنها شعرت برائحة مميزة.

ـ هذه رائحة فطائر الفستق والزبدة. إنها تصنع ألذ فطائر في الدنيا.

ـ نعم، أعتقد أنها تعدّ الآن فطائر حلوى.. لديك حاسة شم ممتازة.

قالت جينا هذا وهي تربّت على أنف تشيلسي بإصبعها.

ضحكت تشيلسي قائلة:

ـ سأذهب لأرى إن كانت تريد مساعدة.

توارت تشيلسي داخل المنزل، وتبعتها جينا بنظراتها.. كانت قد ربطت شعرها الكثيف بمشبك عريض. لكن بعض الخصلات تدلّت وأحاطت بوجهها وعنقها. وعندما اقترب، لاحظ احمرار أنفها وخديها نتيجة العمل في الشمس. وشعّ حذر مفاجىء في عينيها حجب الدفء الذي رآه عندما كانت تكلّم ابنته.

ولكنه لا يستطيع أن يلومها على تصرّفها الجاف هذا، فآخر مواجهة بينهما لم تكن جيدة.

أخذت نفساً عميقاً قبل أن تخاطبه: «مرحباً غاريت».

فراح صوتها الناعم يدغدغ حواسه. وأجاب: «مرحباً، جينا».

وأومأ برأسه بتحية مؤدبة.

ـ هل جئت لتزور «إيلاني»؟ إنها في المطبخ.

وأشارت إلى الداخل.

ـ لم آتِ لأرى إيلاني.. بل لأراك.

فقالت بدهشة: «تراني أنا؟ بعد تلك الطريقة التي افترقنا بها مساء الخميس لا أستطيع أن أتصور ما الذي تريد أن تحادثني به، أو ما بقي ليقال».

تصلّبت قسماته إذ كان عاجزاً عن لومها على شكها به وحذرها منه، فهو لم يمنحها سبباً يدفعها للاعتقاد بأنه من الممكن أن تحصل بينهما أي مودّة، كما أنه ليس هنا ليوطد علاقتهما إنما ليريح نفسه من ذلك الواجب اللعين الذي حمله إياه أخته وأخوه.

ـ أنا...

ولم يستطع النطق، فتنحنح ثم حاول مرة أخرى.

ـ أنا مدين لك بالاعتذار لأنك خسرت عملك بسبب تلك الليلة. ما كان يجدر بي أن أتدخل أبداً، وكان عليّ أن أدع هارلان يعالج المسألة.

آه، يا ليته فعل!

ـ اعتذارك مقبول.

فشعر بالارتياح واتضح له أن جينا ليست بالمرأة الحقود، فهي تأخذ ما تعطيه إيّاها الحياة وتحاول أن ترضى بالأمر الواقع. وقدّر لها هذه الميزة الآن أكثر من أي وقت مضى، لأنها جنّبته التذلل في طلب السماح.

ـ أمّا بشأن عملك...

فقاطعته: «لا تهتم لذلك. لقد أجريت مقابلة عمل في المصرف بعد ظهر يوم الجمعة، فأبدى «زاك موريس» اهتماماً بتوظيفي كسكرتيرة شخصية له. وأرجو أن يكون الرد إيجابياً، فهذا هو العمل الذي اعتدت القيام به.

شهق غاريت حتى كاد يختنق. ذلك أن «زاك»، نائب مدير المصرف شاب لطيف، ولكنه معروف في المدينة بأنه زير نساء. والأسوأ هو أنه لم يكن له يوماً سكرتيرة شخصية، إلى أن قدمت جينا طلباً للعمل.

أضف أن غاريت استاء لفكرة أن تعمل جينا مع رجل آخر.

ـ هذا هو، في الواقع، سبب حضوري اليوم. فقد جئت لأعرض عليك وظيفة.

وبدا الذهول على وجهها: «لتعرض ماذا؟».

ـ أنا بحاجة إلى سكرتيرة مؤقتة، ريثما تعود ليزا من إجازة الولادة، وبحاجة أيضاً إلى من يرعى تشيلسي بعد ظهر كل يوم، إلى أن أعود من

العمل.

لم يتهلّل وجهها فرحاً لهذا العرض، إنما قالت باحتراس:

ـ ولماذا أنا بالذات؟.

ثم تصلب جسدها فجأة، ولم تسمح له بفرصة الردّ على سؤالها:

ـ إذا كنت تفعل هذا لأنك تشعر بالمسؤولية إزاء خسارة عملي في الحانة...

وسكتت، ولكن ما قصدته كان واضحاً فهي لا تريد أن يفعل ذلك بدافع الإحسان أو المسؤولية، وقدّر غاريت مدى اعتزازها بكرامتها ولهذا لم يستطع إلا أن يحترمها لشخصيتها المستقلة ورغبتها في الاعتماد على نفسها.

هو فعلاً يعرض عليها أن تعمل لديه لأنه يشعر بأنه السبب وراء فقدانها وظيفتها.

ـ قلت إنك كنت تعملين سكرتيرة في سانت لويس، لذا يمكنك إدارة أي مكتب ما إن تتعلمي المبادىء الأساسية، أليس كذلك؟

فقالت ببطء: «نعم. لكنني لست الوحيدة القادرة على ذلك».

ـ لكنني لا أثق بأي شخص ليرعى ابنتي.

فبعد أن لاحظ لتوّه المودة المتبادلة بينها وبين ابنته، تأكد من أن جينا هي أفضل شخص لهذه الوظيفة.

تشابكت نظراتهما لحظة طويلة. وكانت عيناها تذهلان الناظر بجمالهما وحدّة المشاعر التي تملأهما. وشعر بالدوار والغيظ لتأثره بها.

شبكت ذراعيها على صدرها وهزت رأسها: «غاريت. لا أظن أن عملنا معاً فكرة حسنة».

لكن الشك الذي سمعه في صوتها حثّه على القول: «سأضاعف الراتب الذي سيعطيك إياه «زاك».

تنفست بعمق، ثم استيقظت بسرعة من تأثير الصدمة.

ـ ولماذا أرفض عرضاً قد يصبح دائماً، لأجل وظيفة مؤقتة؟.

ـ لأنني أحتاجك أكثر مما يحتاجك «زاك».

لم يقصد أن تبدو لهجته متملكة بهذا الشكل. ولكن يبدو أنه أمام هذه المرأة، يفقد كل سيطرة على مشاعره.

رفعت حاجبها لتعليله هذا، وارتسمت على فمها ابتسامة باهتة بجانب «شامة الحسن» تلك.

ـ غاريت، أنا أشك في أنك تحتاج أحداً.

كان في قولها كثير من الحقيقة. فهو دوماً منشغل بالآخرين، من أسرته، إلى أنجيلا، فإلى تشيلسي، وهذا جعله لا يسمح لنفسه بأن يحتاج أو يعتمد على أحد.

ـ تشيلسي بحاجة إليك. وهي شغوف بك. حاولت أن أجد طريقة لأحضرها إلى المكتب وأهتم بها لكن ليزا على حق، فمكان تشيلسي ليس في المكتب، ويمكنك أن تمنحيها ما تحتاجه من انتباه ريثما أعود إلى البيت مساءً.

أخذ ينظر إليها فوجدها مترددة في قرارها. ودونما التفكير في العواقب، وضع يده على يدها التي كانت تضعها على درابزين الدرجات الخارجية فقفزت نظراتها إلى عينيه فجرى الدم حاراً في عروقه.

حاول أن يتجاهل الحرارة التي سرت بينهما وهو يقول: «إذا قبلت بهذا العمل، أسديت خدمة لنا جميعاً».

قال هذا في محاولة أخيرة منه لإقناعها.

عضت شفتها السفلى مفكرة، ثم سحبت يدها من تحت يده.

ـ هل أنت مستعد لتحمّل ما قد يقوله الناس عنّا؟

قالت له هذا بمزيج من القلق والتحذير الذكي.

ولأنه لم يهتم بأقاويل الناس عندما دافع عنها في حانة ليجر بوينت الأسبوع الماضي، أدرك أنه يريد أن يمنحها فرصة للانتماء واكتساب

الاحترام الذي تحدثت عنه تلك الليلة التي أنقذها فيها.

إنه مدين لها بكل هذا، وهو متلهف للتحرر من دينها عليه. وهذا العرض هو البداية. فقال وهو يهز كتفيه: «لكننا سبق أن أصبحنا حديث الناس في البلدة، يا جينا. وهذا الآن ليس أكثر من عرض عمل بيني وبينك».

وبما أن غاريت صمم على حصر علاقتهما ضمن حدود المهنة قالت والشك لا يزال يراودها:

- إنك تجعل الأمر يبدو سهلاً تماماً.

- ما من سبب للرفض، فما أعرضه عليك مفيد لكلينا.. أنت بحاجة إلى عمل، وأنا بحاجة إلى سكرتيرة وفتاة تهتم بابنتي.

فقالت بنعومة: «لابأس قبلت العمل».

- عظيم.

أفلتت منه هذه الكلمة مندفعة مع أنفاسه التي لم يدرك أنه كان يحبسها.

- يمكنك أن تباشري صباح غد. وستكون ليزا هناك لتريك أسلوب العمل.

كل ما عليه فعله هو محاولة عدم التأثر بجينا وتجنب انفراده بها. ولكن لسوء الحظ، تملكه شعور بأن هذه القواعد يسهل قولها إنما يصعب تنفيذها.

* * *

٦ ـ مشاعر لا تعرف الرحمة

للمرة الأولى بعد زفافها المزعوم، تشعر جينا بأنها في مكانها الطبيعي، فالعمل لدى غاريت، والقيام بكل ما ألفته واستمتعت به عندما كانت سكرتيرة في سانت لويس، منحها ذاك الشعور بالكرامة والاطمئنان. جاعلاً نظرتها إلى المستقبل أكثر إشراقاً مما كانت عليه منذ أسبوع. فهناك فرق شاسع بين أن يكون المرء صادقاً مع ذاته ويفعل ما يظنه صواباً، وبين أن تعيش حياة أمْلَتها عليه قواعد وتخمينات ألزمتها بها أمها منذ حداثتها.

هزت رأسها بعجب لاكتشافها كل هذا.. وفي هذا الوقت كانت تضع في الملف أحد السندات المستحقة بعد أن سجلته في دفتر الحسابات بمساعدة ليزا. وهي تتمتم محدّثة نفسها عما جعلها تعتقد بأنها ستكون سعيدة بمكوثها في البيت بعد الزواج. ولم تستطع أن تتصور نفسها تمضي أوقاتها في التخطيط للحفلات أو المآدب الاجتماعية.

سألها صوت عميق: «هل قلت شيئاً؟».

فاستيقظت من تأملاتها مجفلة ونظرت إلى غاريت وهو يضع على مكتبها رزمة من الأوراق، بدا جذاباً للغاية في قميص قصير الكمين وبنطون جينز. وكانت هي ترتدي بنطلوناً وحذاءً خفيفاً وقميصاً حريرياً

كانت قد وضعته في حقيبتها لشهر العسل. فقد أخبرتها ليزا بأن بإمكانها أن ترتدي أي شيء يريحها في شركة «هندسة بلاكويل»، لذا قررت جينا أن تستفيد مما قالته لها ليزا.

بعد أن أمضت ليزا الصباح في تدريب جينا على إدارة المكتب، عادت إلى بيتها بينما بقي غاريت طوال النهار في مكتبه إلا أن أحداً لم يره. فقد انعزل في مكتبه ولم يتصل بها إلاّ نادراً لذا دهشت قليلاً لرؤيته يتحدث معها الآن. لكنها قررت، فيما لو كان سيمضيان أشهراً معاً، أن تقتصر علاقتهما على العمل وحسب. وأجابته: «كنت أفكر بصوت عال أنه من الممتع القيام بعمل ينشّط الذهن... ليس كالعمل نادلة. لقد اشتقت إلى هذا النوع من العمل أكثر مما كنت أظن».

ألقى ناحيتها نظرة سريعة وهو يضع سنداً في «الفاكس» ثم يضغط زر الإرسال.

ـ قالت لي ليزا إنك تتعلمين بسرعة.

ـ هذا سهل ما دمت مرتاحة للإجراءات في المكتب وما دمت أحب عملي.

ووضعت فاتورة على حدة ثم أغلقت درج خزانة الملفات. وعادت إلى مكتبها مدركة أنه يلاحقها بنظراته الدافئة، ثم أضافت قائلة:

ـ إنه عمل ساحر للغاية. ما الذي دفعك لدراسة الهندسة الكهربائية؟

زمّ شفتيه قليلاً مشيراً بذلك إلى انزعاجه من التطرق إلى المواضيع الشخصية وبدا لها واضحاً أنه يودّ أن تقتصر علاقتهما على العمل، فعادت تقول:

ـ أنا لا أسألك عن سرّ المهنة، يا غاريت. كنت أتساءل فقط كيف نشأت شركة «هندسة بلاكويل».

ـ كان أبي متعهد كهرباء وكان يعمل بشكل رئيسي في دانبي وما إن

كبرنا، أنا وريلان حتى تعلّمنا المهنة واتبعنا خطوات والدنا.

ـ وبعد ذلك؟

سألته مستفسرة لإدراكها أن القصة لم تنته هنا. فبدت ابتسامة على زاوية فمه لإلحاحها، ولكن بدلاً من أن يتغاضى عن اهتمامها هذا، أمسك بجهاز الفاكس وهو يقول:

ـ كانت الشركة ملكاً للأسرة. وعندما توفي أبي قمت أنا وريلان، بمختلف الأعمال الكهربائية في البلدة ثم قصدت الجامعة لأدرس الهندسة الكهربائية وأحصل على شهادة. وعندما تخرجت قررنا أن نوسع أعمالنا ونتخصص في المقاولات الكهربائية. ومنذ أصبحنا نتعهد مشاريع كبرى قرب سانت لويس، ازدهرت أعمال الشركة أكثر ما كنا نتوقع.

بدا الزهو واضحاً في لهجته فهو من الرجال المجدّين في العمل، فسألته:

ـ ولكن لِمَ تمضي أوقاتك في المكتب بدلاً من الإشراف على سير العمل في تلك المشاريع الكبرى في المدينة؟

حمل غاريت السند الذي خرج من جهاز الفاكس إلى مكتبها وهو يجيب:

ـ بما أن ريلان يفضل التواجد في حقل العمل والإشراف المباشر، استلمت أنا إدارة المكتب وشؤون التعهدات والمزايدات قريباً من البيت لأجل تشيلسي.

طبعاً، فابنته هي محور اهتمامه. وتنهدت جينا باكتئاب وهي ترفع عن وجهها خصلة شعر شاردة وتضعها خلف أذنها.. تبع حركة أصابعها بنظراته التي استقرت على شعرها الوحشي الأشعث. وتصلّبت يداه وكأنما يمنع نفسه من مد يده لمداعبة تلك الخصلات.

بعثت هذه الحركة الاضطراب في قلبها، فسألته لتسترعي انتباهه

وتسرقه من تأملاته.

- أين هي أمك؟

تنهّد ببطء وقد بدا عليه الارتياح لتخلّصه من تلك الأفكار التي بدأت تراوده.

- انتقلت إلى «لووا» منذ أربع سنوات لتعيش مع أختها. لذا لا نراها سوى مرة أو مرتين في السنة. وأحياناً أرسل إليها تشيلسي لتزورها.

تملكت جينا كآبة مفاجئة فقالت دون وعي:

- إن ابنتك لمحظوظة بكل هؤلاء المحبين في حياتها، خصوصاً بعد أن فقدت أمها في مثل ذلك العمر المبكر.

حدّق إليها لحظة طويلة وقد تفجر من أعماق عينيه الزرقاوين شعور قوي بالحماية.

- لم يؤثر موت أنجيلا كثيراً في تشيلسي، إذ لم تكن تراها كثيراً. فأولويات أنجيلا كانت تقضي بإرضاء رغباتها الأنانية، وقلّما كانت تفكر في تأثير عملها هذا في ابنتها أو حتى في الرجل الذي تزوجته.

بعثت الكراهية البادية في صوته وعلى ملامحه رعدة في جسد جينا. هل يمكن أن تكون عدم ثقة غاريت بالنساء نابعة من أنانية أنجيلا، زوجته السابقة؟ واكتشفت مشاعر عميقة مؤلمة وراء هذا الوصف السطحي لسلوك زوجته. ولم تستطع منع نفسها من التساؤل عما حدث بينهما لكنها لم تشأ أن تحرّك مشاعره المتفجرة تلك.

نظر إلى ساعته، ثم غيّر الموضوع.

- إنها الثانية تقريباً. لِمَ لا تتركين العمل وتذهبين لإحضار تشيلسي من المخيم الصيفي؟.

وأحضر سلسلة مفاتيح كانت معلقة خلف مكتبها.

- هذه مفاتيح شاحنة الشركة الإضافية إلى أن تتمكني من شراء سيارة.

ووضع المفاتيح في يدها.

خفق قلبها للمسته، وشعرت بدغدغة تملكت كيانها تدريجياً وذكّرتها بحلاوة عناقه.

أخذت تجمع أغراضها لتخرج وهي تقول: «شكراً، أراك إذاً في المنزل بعد قليل». فهز رأسه.

- سأتأخر في العمل الليلة. فعليّ أن أجري دراسة من أجل مناقصة الغد.

وحوّل نظراته عنها وهو يحك رقبته بذهن شارد.

- ربما سيعود ريلان إلى البيت قبلي ويهتم بتشيلسي ريثما أعود.

ولأنها أدركت عذره لتغيير عاداته وفهمت أسبابه، لم تقل شيئاً.

* * *

لقد استطاع غاريت في الأمس أن يتهرّب من العودة إلى البيت لكي يتفادى مواجهة جينا في منزله، لكن الحظ لم يحالفه اليوم، فقد أدرك ريلان خطته لتجنب جينا وأبلغه بأنه لن يكون كبش المحرقة طوال أيام الأسبوع.

صعد غاريت درجات بيته المؤدية إلى الباب الأمامي وهو يتنهّد متوتراً إذ يكفيه اضطراره لتمضية النهار مع جينا في المكتب، فقد حطمته ملاحظة كل ما تقوم به، وحطمه شذا العطر الذي كان يفوح من شعرها الناثر الجعد وهي تمر بجانبه. فغالباً ما كانت تدخل مكتبه بعد ذهاب ليزا لتطرح الأسئلة وتسترسل بالحديث معه بشكل عفوي. هي سريعة وقديرة في العمل، لكنها أيضاً قادرة تماماً على إلهائه عن عمله.

دخل البيت فشم رائحة شهية غنية بالبهارات فسال لعابه وتذكر أنه لم يتناول الغداء. وتذكر أيضاً كيف عاد إلى البيت الليلة الماضية ووجد أن جينا حضّرت الطعام للجميع. كان العشاء شهياً وافراً بالمقارنة مع الوجبات السريعة التي يحضّرها هو عادة.

تبع الرائحة الشهية إلى المطبخ ثم توقف فجأة عندما رأى جينا أمام الموقد تحرك سائلاً لذيذ الرائحة. لاحظ أنها بدلت ثياب العمل وارتدت ثوب سباحة أسود وتنورة قصيرة أظهرت ساقيها الطويلتين الرشيقتين. وكانت أظافر أصابع قدميها مطلية بلون وردي فاتح وكان ظهرها إليه، ويبدو أنها لم تسمعه يدخل بسبب الموسيقى المرتفعة التي تستمع إليها. وإذ لم يستطع منع نفسه، أخذ ينظر إليها وقدّها الميّاس يتمايل مع الأنغام، وخلب لبه انطلاقها في هذه الرقصة الشعبية. كانت حركاتها منسجمة رائعة، مليئة بالأنوثة، فأثارت مشاعره وعواطفه كلها.

ثم تنحنح بصوت مرتفع.

استدارت إليه وقد أجفلت لهذه المقاطعة. واحمرّ وجهها خجلاً عندما أدركت أنه رأى ما كانت تفعله.

ضغطت على صدرها بيدها وكأنها تهدىء خفقان قلبها: «غاريت. لم أتوقع أن تأتي باكراً».

وبدا صوتها في أذنيه ملهوفاً وبالغ الجاذبية.

أخفض صوت الراديو، مانحاً إياها عدة لحظات لتستعيد أنفاسها ثم قال وهو يهز كتفيه بعدم اكتراث:

ـ أنا أعود دائماً في مثل هذا الوقت.

ألقت عليه نظرة جانبية ذات معنى وهي تعود إلى تحريك الحساء.

ـ أتراه موعداً هاماً منع ريلان الليلة الماضية من تغطية غيابك؟

هل أمره مكشوف إلى هذا الحد؟ هذا ما يبدو.

ـ نوعاً ما.

تمتم بذلك وهو يدسّ أصابعه في جيبي بنطلونه، متلهفاً إلى تغيير الموضوع.

ـ أنت طاهية ممتازة.

فأضاءت ضحكتها المرحة الجو حوله: «يبدو عليك الدهشة».

فتقدم نحو الموقد ليرى ما تعدّه.

ـ إنها دهشة سرور. فطعام العشاء الذي تركته لنا أمس كان لذيذاً.

أجابت: «معكرونة باللحم».

تنشق بعمق يملأ رئتيه بالرائحة الشهية. آه، نعم! ثم تذكر فجأة أن جينا ربما فهمت خطأً أنه يتوقع منها أن تطبخ أيضاً.

ـ جينا، ليس مطلوباً منك أن تطبخي، فهذا ليس في عقد العمل ولا هو من شروط الوظيفة.

ـ في الحقيقة، أنا لا أمانع القيام بذلك.

وبدا الإخلاص في صوتها وفي نظراتها. ثم أدنت جينا ملعقة من الصلصة من شفتي غاريت قائلة:

ـ تذوق هذا وقل لي ما رأيك.

شجعته ابتسامتها الحلوة على تذوق هذا الطعام الشهي الرائحة. أكل لقمة ثم همهم متلذذاً، وفكر في أنه قد يعتاد سريعاً على هذا الطعام.

قال بصدق: «مذاقه مذهل».

ـ سأعتبر هذه مجاملة منك.

وتألقت عيناها بضحكة صامتة. وأخفضت النار تحت القدر ثم قالت:

ـ أنا أعشق الطهو إلاّ أنني لم أجد سبباً لممارسة هوايتي لأنني أمضيت سنوات وحدي.

ـ ألم تطهي قط لخطيبك؟

لم تتجنب سؤاله كما توقع.

قالت بلهجة جافة: «غالباً ما كنا نتناول طعامنا خارج البيت. وكانت هذه أحد المميزات التي يتمتع بها أعضاء النادي. إنه جراح ويحب أن يكون محط انتباه الجميع، ويستمتع بالاختلاط بزملائه، أضف

تناول العشاء هناك يخدم أغراضه».

فنظر إليها متأملاً: «وأي نوع من الأغراض كنت أنت تخدمين، يا جينا؟».

طرفت بأجفانها وبدت الحيرة على ملامحها.

ـ عفواً؟ لم أفهم.

ـ فهمت منك أنك كنت تفضلين عشاءً حميماً في البيت وحدكما أنتما الإثنين، بدلاً من أن تكونا محط الأنظار. ولهذا استغرب ما الذي دفع شخصين متناقضين، مثلكما، أنت وشيلدون، إلى الزواج؟

لم تقل يوماً إنها تحبه بجنون، ولكن ظهرها تصلب بشيء من الدفاع:

ـ لم نكن متناقضين تماماً.

وسكتت، وقد بدا الانزعاج على وجهها، ثم عادت تقول:

ـ ولكن كلينا كان يعلم ما يتوقعه الآخر منه ومن العلاقة التي تربطه به.

تساءل غاريت عن نوع تلك العلاقة التي كانت بينهما.. لأنه كان واضحاً أن العريس الجرّاح لم يكن يقدّر جينا بما يكفي لكي يلحق بها. وفجأة أراد غاريت أن يعلم السبب فدار صراع بينه وبين ضميره، وأدرك أنه يتخطى الحدود التي رسمها لنفسه مع هذه المرأة، لكن الغلبة كانت لفضوله.

ـ ما الذي حدث في الكنيسة لتنهي علاقتك بشيلدون.

نظرت بعيداً، ولكن ليس قبل أن يرى الذعر الذي أشعله سؤاله في أعماق عينيها.

ـ سبق أن أخبرتك بأنني لست من صنف النساء الذي يحتاجه شيلدون.

سألها وقد ضاقت عيناه: «وأي صنف من النساء هنّ؟».

ـ امرأة محترمة أكثر منّي.

محترمة... ها هي تكرر هذه الكلمة مرة أخرى. كان جوابها اختصاراً لشيء سبّب لها كرباً هائلاً! فما من عروس تهرب من الكنيسة يوم زفافها، مقررة في اللحظة الأخيرة أنها ليست محترمة، أو أن هناك مشكلة في الانسجام. هناك شيء قد حصل... شيء خطير جعلها تظن بأنها لا تصلح لشيلدون، ودفعها للهرب إلى مدينة صغيرة لتبدأ حياة جديدة. وكان قلقها من القوة بحيث أثار عطف غاريت. فعلى الرغم من تشوقه لكشف سرها، لم يستطع أن يكون عديم الإحساس إلى هذا الحد، فهو يعلم من خبرته مع أنجيلا، أن هناك أشياء من الأفضل أن تبقى لصاحبها وتدفن في أعماقه، وهكذا سألها: «أين تشيلسي؟».

بدد الارتياح الظلال التي كانت في عينيها.

ـ في الطابق الأعلى ترتدي ثوب السباحة.

وتكلفت ابتسامة وهي تغطي القدر.

ـ تريد أن تلعب قليلاً في حوض السباحة قبل العشاء، وقبل أن يبرد الماء.

سمعا وقع أقدام من الغرفة الأخرى قبل أن تندفع ابنته إلى المطبخ بابتسامة تخجل الشمس بإشراقها:

ـ بابا، ها قد جئت!

وألقت بنفسها بين ذراعيه كعادتها.

ـ هل ستأتي للسباحة معنا؟

لم يخطط لقضاء أي وقت إضافي مع جينا، وفي الواقع، لقد أمضى معها الآن وقتاً أكثر من اللازم، واكتشف أكثر مما كان يهتم بمعرفته.

لذا يستحسن أن يرفض ويعتذر فيتمكن من التواري حتى تخرج جينا.

لكن تشيلسي أخذت تقول ضارعة:

ـ أرجوك. يمكننا أن نلعب نحن الثلاثة لعبة «ماركو ـ بولو» (الهرب والملاحقة) تحت الماء. لم نلعب هذه اللعبة منذ وقت طويل.

ورغم تحفظه، لم يستطع غاريت أن يرفض هذا الطلب لابنته، فهو للأسف لا يمضي وقتاً طويلاً معها. فأخذ يداعب شعرها بعطف:

ـ امنحيني بضع دقائق لأغير ملابسي.

ابتسمت تشيلسي مسرورة:

ـ آخر شخص ينزل إلى البركة هو الذي يلاحقنا.

كانت جينا آخر من خرج إلى البركة، فهتفت تشيلسي بغبطة بالغة:

ـ هي من سيلاحقنا.

نظرت جينا إليها مداعبة ولكن ما كان عليها أن تلوم سوى نفسها لوصولها متأخرة حيث أمضت الوقت في تنظيف المطبخ وترتيبه بعد الطبخ، هذا عدا التفكير في أسئلة غاريت الشخصية. تمنت من ناحية، لو أنها تستطيع إطلاعه على سبب قطع علاقتها بشيلدون عند مذبح الكنيسة، ولماذا لا يمكنها أبداً أن تكون المرأة التي يحتاجها شيلدون في حياته. لكن المخاوف شوشت مشاعرها ومنعتها من الإفضاء بهذا السرّ إلى أحد.

ها هي اليوم تشعر بأنها تنتمي إلى هذا المكان وهذا أمر هام عندها لأنها أمضت معظم حياتها تفتش عن مكان يتقبلها ويرضى بها. وكان كل يوم يمرّ يعمّق إحساسها بالانتماء والإطمئنان. والمجازفة بخسارة هذا الاستقرار الذي حصلت عليه تمنعها من مصارحة أحد بالحقيقة، خصوصاً غاريت. فقد سبق له أن كنّ حقداً بالغاً لزوجته، وهي لا تريد أن يكنّ لها الشعور نفسه.

ابتسمت لرؤية تشيلسي وغاريت يلعبان في الماء بكرة الشاطىء الملوّنة، ثم توجهت إلى المنضدة حيث وضعت تشيلسي المناشف.

ولكن نظرتها الغادرة كانت تتسلل إلى كتفي غاريت العريضتين وظهره العاري وحركات عضلاته. كان جسمه رياضياً وقد لوّحت الشمس بشرته. واكتسحتها موجة دافئة من المشاعر جعلت خفقات قلبها تتسارع.

قالت وهي تفك تنورتها التي لفتها حول وسطها احتشاماً: «كيف هي حرارة المياه؟».

التقط غاريت الكرة التي ألقتها تشيلسي إليه، ثم التفت ينظر إليها.. كان شعره الأسود متنحياً عن وجهه، فباتت ملامحه أكثر وضوحاً.

ـ باردة في البداية، ولكن سرعان ما تعتادين عليها.

سقطت التنورة عن خصرها، فأخذت نظرات غاريت تتنقل ببطء بين تفاصيل جسدها المكسوّ بثوب السباحة الأسود. وامتلأت عيناه بحرارة الإعجاب.

أحسّت على الفور بالخجل من نظراته المتفحصة وقاومت رغبتها في ارتداء التنورة مجدداً وستر جسدها. لكنها عادت فرفعت رأسها مستعيدةً كبرياءها.

لكن رأي غاريت يهمها حقاً. كان يهمها ما يظنه بها، ولم تكن تريد أن تبدو امرأة غير محترمة في عينيه.

رفضت أن تحلل هذا الشعور الذي اعتراها أو حتى سبب أهمية رأيه بالنسبة إليها، ثم سارت إلى حافة البركة وغطست قدمها في الماء مترددة، ثم ارتجفت:

ـ لا أدري.. هذه المياه باردة جداً.

فقالت تشيلسي وهي ترش الماء على ساقي جينا.

ـ اقفزي فقط إلى الماء، يا جينا. هذا ما نفعله، وبعد ذلك لا تفكرين في أنه بارد.

ووافقها غاريت ضاحكاً: «وهذا أقل الخيارين سوءاً».

تراجعت عدة خطوات ثم نظرت إليه بارتياب: «وما هو الخيار الآخر؟».

لمعت عيناه بمكر ومرح بعيدين كل البعد عن ذاك الرجل الخشن المتحفظ الذي اعتادت التعامل معه.

ـ أن أحملك وألقيك في الماء.

وسار نحو الدرجات ليمسك بها.

وهذه المرة، كانت الرعشة التي تملكتها حقيقية تماماً. لا يمكن أن تدعه يحملها بين ذراعيه وقبل أن ينفّذ تهديده، قفزت إلى الناحية العميقة من بركة السباحة. غمرتها المياه الباردة التي صدمتها وأنعشتها في آن معاً. وبعد لحظات قليلة كانت تعوم على سطح الماء وهي تشهق طالبة الهواء.

تناهت إليها ضحكات تشيلسي الطفولية وقهقهة غاريت الرجولية من آخر بركة السباحة.

أخذت تشق طريقها في المياه وهي تنظر إليهما بعينين ضيقتين قائلة: «لا أدري ما الذي يضحككما. سألاحقكما، فاهربا واختبئا مني قبل أن أصل إليكما».

وغطست تحت الماء مرة أخرى سابحة نحوهما وعيناها مغمضتان حسب قواعد اللعبة، ثم طفت على وجه الماء ونادت: «ماركو».

فأجابها لتبدأ بالبحث عنهما.

ـ «بولو».

تعمدت جينا تجنب مصدر صوت غاريت وركزت اهتمامها على صوت تشيلسي، فلحقت بها مغمضة العينين إلى أن أمسكتها.

ثم حان دور تشيلسي لتمسك بجينا وغاريت. ولأنهما كانا أمهر وأسرع بالسباحة من تشيلسي، ترك غاريت ابنته تمسك به قبل أن

يتملكها التعب واليأس من البحث. وراح يدغدغ ابنته إلى أن أغرقت في الضحك مسرورة وتضرعت إليه ليطلق سراحها ثم أخذت تقفز في الماء هاتفة:

ـ عليك أن تمسك بجينا يا «بابا»!

فقالت جينا تغيظهما: «أنا أسرع من أبيك وأمهر منه».

وسرعان ما أدركت غلطتها عندما رأت لمعان التحدي في عيني غاريت.

ـ سنرى ذلك.

هذا ما تمتم به غاريت وهو يغطس تحت الماء ليمنحهما فرصة تغيير مواقعهما. ومع أن جينا حاولت جاهدة تجنبه، فقد استطاع حجزها بجانب البركة بعد أقل من دقيقتين. مع كل نداء منه (ماركو) وجواب منها (بولو)، كانت المسافة بينهما تقصر، مانعاً إياها من الهرب. كانت المياه ترتطم بصدره برفق وهو يقترب مغمض العينين، مائل الرأس ليسمع كل حركة تقوم بها. كان يبدو مستعداً تماماً للقفز في أي اتجاه تقرر هي الذهاب إليه.

رغم أن الأمر كله كان مجرد مرح ولعب، إلا أن قلب جينا أخذ يخفق بإثارة وتوقع. كان على بعد ثلاثة أقدام منها عندما نادى (ماركو) مرة أخرى.

وبدلاً من أن تصدر الجواب، قررت أن تجرب حظها وتتفاداه... فانسابت بصمت تحت الماء، متجهة نحو المكان العميق من البركة. ولكن قبل أن تصل إلى هناك أحاطت بخصرها ذراعان قويتان، ضمتاها إليه. تشابكت عيونهما للحظة فذعرت جينا، ولكن ليس لأنه أمسك بها.

ودار رأسها للأحاسيس المدمرة التي تملكتها لاحتضانه لها بهذا الشكل. حاولت أن تبعد اليد التي انبسطت على كتفيها، لكنه قاومها

وطفا معها على سطح الماء. وحالما شق رأساهما المياه، أخذت تستنشق الهواء بعمق.

سار بها إلى جانب البركة، ما زاد في تقاربهما. وتملكها شوق مهلك... شوق لا يؤدي إلا إلى تحطم القلب مع رجل جاف مثل غاريت.

ـ أنت أسرع مني وأمهر... أليس كذلك؟.

همس ذلك في أذنها ساخراً وأضاف:

ـ ألا أبدو أدهى من الثعلب؟

بل أكثر من ذلك، وستحذر في المستقبل من أن تنافسه أو تغيظه، قالت وهي تستر اضطرابها بتصنع السخط: «وأنت كدت تغرقني أثناء ذلك».

كانت مع غاريت تلعب بالنار، فجاذبيته محرقة، ولم تكن مستعدة للتعامل معها، خصوصاً قبل أن تعرف اتجاه مستقبلها. أما الآن فإن خططها لا تتضمن الوقوع في غرام رجل لا يعتبرها سوى امرأة هو مسؤول عنها بدافع الشهامة لا غير.

وإذ هزها ما حدث، وردة الفعل تلك التي لم تستطع السيطرة عليها للمرة الثانية بعد ذلك العناق الملتهب الذي تبادلاه، أخذت تجاهد للتملص منه، فأطلق سراحها أخيراً. فسبحت بسرعة إلى الناحية الضحلة ثم تسلقت الدرجات خارجة من البركة.

ـ جينا. إلى أين أنت ذاهبة؟

سألتها تشيلسي هذا وقد خمدت حيويتها لفراقها المفاجيء.

تناولت جينا منشفة لفتها حول كتفيها، ثم ابتسمت للفتاة الصغيرة: «عليّ أن أذهب يا طفلتي، لكنني سأراك غداً».

وأرغمت نفسها على مواجهة نظرات غاريت الحذرة المبهمة كما لو أنه لم يقلب لتوّه كيانها رأساً على عقب.

ـ كل ما عليك أن تفعله هو أن تضيف المعكرونة المسلوقة إلى الصلصة باللحم المفروم التي أعددتها فيصبح العشاء جاهزاً.

قالت ذلك ثم دخلت المنزل تغير ملابسها. وأثناء عودتها إلى المنزل الذي تسكن فيه، أدركت أنها تهرب مرة أخرى... تهرب من المشاعر التي أثارها غاريت في كيانها.

* * *

www.elromancia.com

٧ ـ سائرة على جمر . .

رفعت جينا عينيها عن الفواتير التي كانت تدخلها إلى الكمبيوتر، عندما فتحت ليزا باب المكتب ودخلت حاملة سلّة في يدها.

قالت جينا: «مرحباً. . . ظننتك ترتاحين في البيت».

فقالت ليزا وهي تقترب من مكتب جينا: «لو أذعنت لتعليمات أخي، لما فارقت سريري إلى حين مجيء هذين».

وربتت على بطنها المنتفخ.

ـ غاريت يقلق أكثر مما ينبغي. أكثر من زوجي نفسه.

أطفأت جينا الكمبيوتر وهي تقول: «من الصعب أن تلوميه وهو يراك على وشك الولادة في أي وقت».

ـ أرجو ذلك، لأن هذين لا يكفّان عن الركض واللعب.

ووضعت ليزا السلة على زاوية المكتب واختلست نظرة إلى باب مكتب غاريت المفتوح.

ـ لم أر شاحنة أخي في الخارج، أليس هنا؟

ـ لا، إنه يحضر عرض مناقصة ولن يأتي قبل العصر.

ـ هذا حسن.

وجرّت ليزا كرسياً إلى مكتب جينا، ثم تهالكت عليه وهي تئن متضايقة.

ـ يمكنني على الأقل أن أرتاح وأستمتع بدون أن يقلقني بالعناية بي.

فابتسمت جينا:

ـ إذاً، ما الذي جاء بك إلى المكتب؟

ـ شعرت وكأنني محتجزة في قفص.

ثم تنهدت قبل أن تتابع: «المنزل نظيف وغرفة الطفلين جاهزة، كما تعبت من قراءة الكتب. . . فصنعت فطيرتين وقررت المجيء إليك لنأكلهما معاً».

رفعت جينا حاجبيها بدهشة ونظرت إلى السلة: «هل أحضرت لي الغداء؟ ما ألطفك!».

ـ كان عليّ إما أن أفعل هذا، وإما أن أجن في البيت وحدي.

وفتحت السلة وأخرجت منها الفطيرتين.

ـ ماذا تفضلين، اللحم أم الحبش؟

ـ سآخذ اللحم.

قالت جينا هذا وهي تخلي زاوية المكتب من الأوراق لكي تتمكن ليزا من بسط الغداء.

لم تحضر فطائر فحسب، إنما أحضرت أيضاً سلطة فواكه وحلوى، وعندما راحتا تأكلان، سألتها ليزا: «كيف يعاملك رب العمل؟».

ـ بشكل ممتاز.

قالت جينا هذا وهي تأكل قطعة من البطيخ أتبعتها بالحلوى اللذيذة.

ـ لقد كان صبوراً إلى أقصى حد بالنسبة إلى الأخطاء القليلة التي اقترفتها.

ـ لم يمض على وجودك هنا سوى أسبوع، لذا لا تقلقي فسرعان ما تعتادين على روتين العمل. كيف تجري الأمور مع تشيلسي؟

ـ عظيمة.

كانت الصغيرة ناضجة بالنسبة إلى سنها ولعوباً، وسرعان ما احتلّت مكاناً في قلب جينا... مثل أبيها.

ـ الوقت الذي أمضيه مع تشيلسي هو أفضل أوقات نهاري.

ويتبعه في المرتبة الثانية موعد عودة غاريت من العمل رغم حرصها على تجنب تكرار ما حدث أثناء السباحة.. قد يكون مجرد رجل أعمال في المكتب، لكنهم في البيت يجلسون معاً بمودة بالغة. ورغم أن جينا لم تكن تنوي مطلقاً البقاء عند وصول غاريت، إلا أن تشيلسي وريلان كانا يصران على أن تبقى لتتناول العشاء الذي تحضّره عادة. وقد بات بقاؤها عند المساء أمراً متوقعاً الآن ولكن هذا لا يعني أن جينا تمانع البقاء، فلأنها الآن جزء من أسرة بلاكويل بدأت تشعر بأن الفراغ الذي لازمها مدة طويلة قد توارى بعيداً. لقد تقبلتها الأسرة بأجمعها بدون شروط وجعلتها تشعر بالانتماء إليها.

ولكن في الليل، عندما تأوي إلى فراشها، تتسلل الذكريات المؤلمة إلى ذهنها، وتذكّرها بسبب حاجتها إلى حماية قلبها من المشاعر الرقيقة التي تحاول أن تجد طريقها إليه.. ما زالت تجهل كل شيء عن اتجاه مستقبلها. وبينما الحاضر هنا في دانبي مريح جداً، كان الخوف يتملكها باستمرار من أن يدركها ماضيها مرة أخرى... فيهدم ما بلغته من سعادة.

لكن الجزء الأصعب في عملها هو مقاومة انجذابها إلى رئيسها، وإحساس كل منهما بالآخر عندما يكونان وحدهما. وكان تجاهله يتطلب منها جهداً بالغاً، فلمسة منه تضاعف خفقات قلبها ونظرة طويلة دافئة من عينيه كفيلة بأن توهن منها الركبتين وتزيد من حنينها إلى تلك المعانقات التي تبادلتها مع غاريت.

لكنه بقي سيداً مهذباً، وحاولت هي التمسك بقناعتها بأنها لا تصلح له أبداً مهما بدا لها عذرها لذلك هشاً أحياناً.

لا يمكنها أن تكون الشخص الذي يحتاجانه، هو وتشيلسي. ورغم حنينها إلى المزيد كانت تعلم، وتتقبل حقيقة أن دورها في حياتهما مؤقت كوظيفتها.

عندما أنهت جينا طعامها، قررت استئناف العمل، وقالت لليزا:

ـ ما دمت هنا، هل لك أن تريني كيف تطبعين تقارير الضرائب التي ترد كل ثلاثة أشهر؟

فأجابت ليزا بابتسامة عريضة: «آه، هذا ينعش تفكيري. بكل سرور».

وضبّتا الطاولة من الطعام، وقرّبت جينا كرسي ليزا منها، ثم أخذت تصغي بينما راحت المرأة الأخرى تراجع معها تقرير الضرائب. ثم أشارت لها إلى بعض الطرق المختصرة بما يتعلق بالإجراءات المتخذة بالنسبة إلى علاقات المكتب. وبعد ساعة، دخل غاريت، فقطب جبينه على الفور عندما رأى أخته جالسة خلف المكتب تعمل على الكمبيوتر:

ـ ما الذي تفعلينه هنا، يا ليزا؟

أجابت باسمة: «كنت أتغدى فقط مع جينا».

زم فمه باستياء وهو يأخذ رسائله: «لكنني أراك تعملين».

تنهدت ليزا وهي تقف.

ـ ما دام المحقق قد وصل، أفترض أنها إشارة لي لأرحل.

وابتسمت لجينا.

ـ كان الخروج من البيت شيئاً ممتعاً.

تقدمت جينا من ليزا تناولها السلة: «شكراً للغداء وللعون الذي قدمته لي».

ـ في أيّ وقت...

وشهقت ليزا بحدة، واتسعت عيناها وأمسكت ببطنها وهي تهمس:

ـ يا إلهي.

فسأل غاريت وجينا في وقت واحد: «ماذا حدث؟».

ونظرت ليزا ببطء إلى الأرض، ففعل غاريت وجينا مثلها، فرأيا بركة من سائل صاف عند قدميها.

رفعت ليزا بصرها وهي تضحك متوترة الأعصاب: «أظن أن (ماء الرأس) قد تفجرت».

جلست جينا في غرفة الانتظار في المستشفى ترتشف قهوتها الحلوة وتنظر إلى غاريت وهو يذرع الممر أمامها. وكانت تشيلسي الناعسة متكئة على فخذها. بدت على ثغرها ابتسامة واهنة وهي تفكر في كل ما أدّى إلى هذه اللحظة.

عندما تفجرت (مياه الرأس) في المكتب، أصرّ غاريت على نقل أخته إلى المستشفى على الفور، واعداً إياها بأن يتصل بزوجها من هاتفه الخليوي في الطريق ليتمكن «دوين» من موافاتهم إلى المستشفى. أغلقت جينا باب المكتب باكراً، وأحضرت تشيلسي من المخيّم، ثم ذهبتا إلى المستشفى حيث قابلتا غاريت. وهناك جلسوا ست ساعات في الانتظار ثم تناولوا العشاء في «الكافيتيريا». وكان «دوين» يوافيهم بتطورات حالة ليزا، ولم يكن بوسعهم سوى الانتظار ريثما يقرّر التوأمان موعد ظهورهما إلى العالم.

سئمت تشيلسي من طول الانتظار ومن البرامج المملة الخاصة بالكبار التي يعرضونها على شاشة التليفزيون، فتمددت على الأريكة وأسندت رأسها على حضن جينا التي كانت تدرك أنها ستغفو في أي لحظة، وبالفعل لم يستغرق الأمر سوى خمس دقائق.

أما أبوها، فكان متوتراً للغاية. فهو لا يكاد يجلس حتى يهبّ واقفاً ليذرع الممر مجدداً أما جينا فكانت تتأمل وسامته وهو يسير بجسمه الرياضي الرائع.

وصل إلى طرف الغرفة، ثم استدار عائداً إليها وعيناه الزرقاوان

داكنتان عاصفتان.

ـ لو بقيت ليزا في بيتها مرتاحة لما حدث هذا أبداً.

هذا ما راح يردّده غاريت مراراً وتكراراً منذ وصوله إلى المستشفى. فقالت له جينا أكثر من مرة.

ـ لو بقيت ليزا في المنزل، لشعرت بالمخاض هناك يا غاريت. فذانك التوأمان جاهزان لكي يولدا.

دس أصابعه في شعره الأسود كما اعتاد طوال المساء، وهو يقول:

ـ ولكن ما يزال أمامها ثلاثة أسابيع.

ـ التوائم تبكر عادة في المجيء. والمعروف أن مواعيد الولادة غير ثابتة.

ثم أنهت قهوتها وناولت غاريت فنجانها الفارغ.

وضعه على منضدة قريبة، ثم عاد إلى سيره المضطرب في غرفة الانتظار. نظر إلى ساعته ثم عبس:

ـ ما الذي أخّرهم طوال هذا الوقت؟

ـ الأطفال يأتون في وقتهم المناسب.

ومرّرت جينا يدها في شعر تشيلسي الأملس الناعم الذي يتناقض وخصلات شعرها هي الوحشية.

ـ لا بدّ أنك تعلم ذلك منذ ولادة تشيلسي.

أطلق تنهيدة طويلة، ثم تهالك على كرسي أمام الأريكة الجلدية التي كانت جينا جالسة عليها، مرغماً نفسه على الاسترخاء. تبدد توتر جسمه، لكن ما قالته جينا أعاد إليه ذكريات الماضي واليوم الذي ولدت فيه تشيلسي. نعم. لقد تعلم في ذلك اليوم الكثير عن الأطفال. أكثر مما كان يتوقع. فقد اكتشف، حينذاك، إلى أي حد خدعته أنجيلا.

وانقبض قلبه وهو يتذكر شتى أنواع المشاعر التي تملكته في ذلك اليوم المصيري الذي غير حياته كلياً... البهجة لولادة تشيلسي طفلة

قوية سليمة... الغضب لأن المرأة التي وهبها حياته وإخلاصه وثقته خدعته... والاستسلام لأنه كان يعلم بأنه لن يتنصل أبداً من المسؤولية التي باتت بين يديه، ولكن بالرغم من ظروف ولادة تشيلسي، لم يندم قط على ضمّها إلى حياته.

وانتقلت نظراته إلى جينا... إنها امرأة أخرى تثير فيه مختلف أنواع المشاعر، الحنان والاهتمام، والمسؤولية التي سببت له المشاكل في الماضي.

ولكن جينا مختلفة عن أنجيلا، فهي صادقة نزيهة، وقد أسبغت العطف على ابنته، وزادت حياته إشراقاً وسهولة بوجودها، وذكّرته أنه ذات يوم، أراد أن يؤسس عائلة خاصة به. وأخذت مقاومته لها تزداد صعوبة يوماً عن يوم.

ما إن رأى «دوين» يفتح الباب المؤدي إلى غرفة الولادة بقوة، حتى هبّ غاريت واقفاً مخلفاً وراءه تلك الأفكار التي راودته.

كان زوج ليزا مرتدياً ثوباً معقماً وعلى وجهه ابتسامة عريضة وقد أشار إلى غاريت بعلامة النصر.

ـ رُزقنا بصبي وفتاة سليمين معافيين.

تملك غاريت الارتياح فارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة.

ثم صافح صهره قائلاً: «تهانينا، لكم أنتم الأربعة».

وأيقظت جينا تشيلسي لتبشرها بأنه أصبح لديها الآن ولدا عمة، ثم وقفت وعانقت دوين.

ـ أنا سعيدة للغاية لأجلكما أنت وليزا.

ـ متى يمكننا رؤية الطفلين، يا عمي دوين؟

سألته تشيلسي هذا وقد استيقظت فجأة وبدت اللهفة على وجهها.

ضحك دوين ولوى أنف تشيلسي:

ـ سيكونان في غرفة الحضانة بعد أقل من نصف ساعة لكي تريهما.

وعندما تعود العمة ليزا إلى البيت بعد عدة أيام، يمكنك أن تحمليهما.

ثم سأله غاريت: «وكيف حال ليزا؟».

فهز رأسه.

ـ ممتازة، لكنها مرهقة، جاكوب وجانيت لن يكونا مزعجين. يمكنني أن أرى ذلك منذ الآن.

فضحك غاريت: «ودّع النوم إذاً طوال السنة القادمة».

قال ذلك ليغيظه، ثم عاد يقول برزانة:

ـ ستذهب لرؤية الطفلين في غرفة الحضانة، ثم نخرج.. أبلغ ليزا حبنا وأخبرها أن تستريح الليلة فسنأتي صباحاً لرؤيتها.

وأومأ دوين برأسه ثم عاد إلى زوجته: «سأخبرها».

* * *

ـ أليسا أجمل ما رأيت على الإطلاق؟

وإذ سمع غاريت الشوق في صوت جينا، نظر من نافذة غرفة الحضانة، إلى التوأمين.

كان أحدهما مقمّطاً بالأزرق، والثاني بالوردي ثم استدار نحو جينا ليجد ملامحها تنطق باللهفة والشوق إلاّ أن ابتسامتها كانت كئيبة، فأجفل لرؤية تلك المشاعر التي ارتسمت على ملامحها.

تجاهل الدفء الذي سرى في كيانه، وحوّل اهتمامه إلى الطفلين، وقال بصوت أجش خافت:

ـ نعم، إنهما جميلان للغاية.

ووقفت تشيلسي على أصابع قدميها بين غاريت وجينا لكي ترى بشكل أفضل، ثم قالت عابسة:

ـ لِمَ وجها هما أحمران؟

ضحكت جينا وضمت تشيلسي إليها بعطف.

ـ هكذا يبدو حديثو الولادة... لبضعة أيام فقط. وأنا واثقة من أننا

عندما نراهما في منزل عمتك ليزا، سيكون هذا الاحمرار قد زال كلياً.

قالت لها جينا هذا قبل أن يحاول غاريت الإدلاء لابنته بتفسير سهل.

أخذت تشيلسي تتأمل ذلك لحظة، ثم رفعت رأسها إلى جينا:

ـ ومتى ستلدين أنت طفلاً؟.

اتسعت عينا جينا، ورآها غاريت تضغط بيدها على بطنها بذهن غائب، لكنها سرعان ما استفاقت من الصدمة التي أحدثها في نفسها سؤال تشيلسي البريء:

ـ ربما ذات يوم عندما أجد أميراً فاتناً يتزوجني.

لم تعجب جينا ابنته فقط بجوابها هذا الذي يشبه حكايات الجن، ولكنها ذكّرت غاريت مرة أخرى بتلك الليلة التي عرفها فيها عندما أخبرته بأنها تتمنى أن تتزوج الأمير الفاتن وتعيش معه سعيدة إلى الأبد، إنها تستحق ذلك الاستقرار وتلك السعادة... وكذلك كل امرأة، ولكنه ليس الرجل الذي يوفّر لها ذلك، مهما بلغ إغراء جينا وانجذابه إليها، فبعدما تعلّمه من أنجيلا، لم يعد يستطيع أن يمنح أي امرأة مثل تلك العهود والوعود. ورغم أن ذهنه تقبّل الدرس الذي تلقاه يوماً إلا أن جزءاً من نفسه، لم يستطع أن ينكر أن جينا تلائم حياته تماماً وكذلك حياة تشيلسي. فهي بدأت تتحول شيئاً فشيئاً إلى أكثر من مجرد مسؤولية جذابة أقحم نفسه فيها.

ارتسمت على شفتي جينا ابتسامة هزل شيطانية، وهي تقول لتشيلسي:

ـ أحب أن أُرزق ذات يوم بثلاثة أو أربعة أطفال على الأقل.

فهتفت تشيلسي بصوت خافت:

ـ أوه... سيكون بطنك أكبر من بطن عمتي ليزا بمرتين.

ضحكت جينا وبدا عليها المرح.

ـ حسناً، أحبهم أن يأتوا واحداً تلو الآخر وليس دفعة واحدة.

وأخذت تداعب شعر تشيلسي.

عادت ابنته تتفرج على التوأمين اللذين كانا يتلويان في مهدهما بعد أن استيقظا من غفوتهما.

كان المرح ما زال في عينيها بسبب تصورات تشيلسي عن الأطفال، وفي هذه اللحظة التقت عيناها بعيني غاريت.

بادلها ابتسامتها، ووجد ذلك سهلاً عليه، ثم دس أصابعه في جيب بنطلونه الأمامي:

ـ إذاً أنت تريدين كل هذا العدد من الأطفال، أليس كذلك؟.

رغم أن سؤاله كان ينم عن فضول صادق، لم يستطع أن يمنع الصورة التي ارتسمت فجأة في ذهنه عن إنجاب طفل من جينا.

أعاده صوتها الناعم إلى الواقع.

ـ نعم، أريد ذلك. فقد نشأت بدون أخت أو أخ، ولطالما تمنيت لو أن لدي أخت أو أخ لألعب معهما.

ـ أو تناقشين أو تتقاتلين معهما.

قال ذلك ساخراً وقد اتكأ إلى زجاج غرفة الحضانة.

فقالت وهي تلمس النافذة بأصابعها وكأنها تمد يديها أو تشعر بصلة بينها وبين الأطفال:

ـ وهذا أيضاً... لأنني كنت دوماً وحيدة.

تساءل عما إذا كانت تشيلسي تشعر بالشيء نفسه ثم حدث نفسه بأن ابنته أصبح لديها الآن ابنا عمة ليملآ فراغ حياتهما. وسألها: «هل كان شيلدون يريد أطفالاً؟».

هزت كتفيها بعدم اكتراث.

ـ أنا واثقة من أنه كان سيصبح لدينا أسرة.

ـ هل لأن هذا ما كان يتوقعه منك، ويشكل جزءاً من ذلك الهدف الذي جعلك ملائمة لشيلدون؟

نظرت إليه لحظة طويلة بعينين تنضحان حزناً. وتوقع منها أن تشيح بوجهها عنه، أو أن تغير الموضوع، لكن المدهش أنها لم تفعل:

ـ كان لكل منا هدف يلائمه من علاقتنا تلك.

اعترفت بذلك بدون أن تبدي زهواً.

ثم تنفست بعمق.

ـ غاريت، شيلدون كان فرصتي لأحظى بالاحترام.

كان صوتها خافتاً للغاية، يكاد يكون همساً مؤلماً. ولكن لا مجال لإنكار ما سمعه. وتملكه الاضطراب لأن كلماتها أثارت في نفسه العطف. فسألها بالصوت المنخفض نفسه:

ـ وما الذي جعلك تعتقدين بأنك غير محترمة؟

ولم تفلح ابتسامتها المرتجفة في تبديد الحزن من عينيها.

ـ الأفضل ألاّ تعلم.

عندئذٍ، عادت تنظر إلى التوأمين وكأنما النظر إليه كان يؤلمها في الصميم، ثم انحنت على ابنته:

ـ انظري يا تشيلسي.

وأشارت إلى الطفل المقمّط بالأزرق وقد تمكّن من إرخاء الدثار عن ذراعيه، بينما كانت قبضته الصغيرة تتحرك في الهواء.

ـ أظن أن جاكوب يلوّح لك بيده.

فهتفت تشيلسي بإثارة وهي تتشبث بيد جينا:

ـ لقد رأيته. هل رأيت ذلك يا بابا؟

ـ نعم يا حبيبتي. رأيته.

أدلى بهذه الكذبة البيضاء برصانة، وفي الحقيقة، الشيء الوحيد الذي استطاع رؤيته في تلك اللحظة كان ألم جينا.

ولم يكن هذا أمراً حسناً... على الإطلاق.

* * *

٨ ـ شبح الماضي المر

ـ آسف لتأخري.

أغلقت جينا الرواية العاطفية التي كانت تقرأها ووضعتها على منضدة بجانب الأريكة عندما دخل غاريت الغرفة، كانت الساعة قد بلغت الثامنة والثلث مساء، متجاوزة بذلك موعد خروجها... لكنها لم تهتم، لأنها كانت تفضل البقاء في بيت غاريت على تلك العزلة في غرفتها الهادئة الموحشة في النزل. وقالت ترحب به بابتسامة حارة:

ـ ما من داعٍ للاعتذار. هل سار كل شيء على ما يرام في الاجتماع في سانت لويس؟

ـ نعم.

وجلس على الكرسي القريب منها وقد بان الراحة والرضا على وجهه:

ـ لقد استغرق مني تكرار الأرقام مع التخمينات التي قدمتها، أكثر مما ظننت. لكن شركتنا حصلت على العرض.

فرحت لأجله، فمدت يدها ووضعتها على ذراعه بدون وعي منها وهي تقول: «هذا خبر رائع».

تنفس بحدة، وقفزت عيناه من يدها إلى عينيها لأن بينهما سرى تيّار من المشاعر كالنار في الهشيم. شعرت تحت أصابعها بدفئه وتقلص

عضلاته الذي يشير إلى أن لمستها تلك قد أثّرت فيه أكثر مما كانت تلك اللمسة تعنيه.

كان هذا شأنهما في الأسابيع الماضية... يتجنبان أي تقارب بينهما، ويتفاديان إظهار التجاذب بينهما لكي يستمرا في العلاقة المهنية التي تربطهما. ولكن لم يكن من مجال لإنكار تلك المشاعر التي تتفتح في كيان جينا... مشاعر تزداد مقاومتها صعوبة يوماً بعد يوم.

اتبعت الطريق الآمن لحماية قلبها من تلك المشاعر فرفعت يدها عن ذراعه، كما أخذ هو يجاهد بشكل واضح لكي يستعيد سيطرته على نفسه.

ـ المكان هادىء هنا.

قال ذلك بعد مرور لحظة طويلة. وأحنى رأسه يسألها.

ـ أين تشيلسي؟

ـ لقد أمضت ابنتك يوماً شاقاً لذا نامت مباشرة بعد استحمامها.

استند إلى الخلف في كرسيه وشبك يديه خلف رأسه، وعكس المصباح بجانبه ضوءه الذهبي حول رأسه مبرزاً ملامحه الوسيمة وهو يسألها: «وأين ريلان؟».

ـ يا له من سؤال! لقد خرج مع «إيما».

وضحكت وهي تدس خصلة من شعرها خلف أذنها.

كان حديثهما مريحاً عفوياً. وهما يمضيان المساء بشكل طبيعي عادي. ما جعلها تشعر وكأنها أمضت سنوات مع غاريت، وليس أسابيع قليلة، ولولا افتراقهما في الأمسيات، لبدوا ثنائياً سعيداً، لا بل زوجين سعيدين.

وراحت جينا تحلم بهذه الأفكار التي راودتها مسحورة بتلك الحياة التي كانت لتعيشها مع غاريت...

وشعرت بوجهها يتوهج احمراراً وكبحت ما تشعر به من عواطف

جياشة، يصعب عليها مقاومتها.

ـ بعد أن أحضرت تشيلسي من المخيّم، ذهبنا إلى بيت ليزا لرؤية التوأمين.

فقال بابتسامة رقيقة: «وهل سار كل شيء على ما يرام؟».

ـ نعم.

ورفعت ساقيها على الأريكة، وتنفست بعمق.

ـ لقد حملت تشيلسي الطفلين وبدت سعيدة للغاية.

ـ يبدو أنها ستساعد ليزا عندما تعود أختي للاهتمام بها مجدداً.

ملحوظة غاريت العفوية ذكّرت جينا بوجودها المؤقت في حياته، وكم أخافها التفكير في أنها لن تراه هو وتشيلسي بعد أن ينتهي عملها.

ـ نعم، هذا صحيح.

قالت هذا موافقة وتنحنحت لتزيل التوتر المفاجىء الذي سدّ حلقها. وأخذت تعبث بثوبها، ثم نقلت نظراتها إلى «ألبوم» الصور الموجود على الطاولة أمامهما.

ـ غاريت...

ثم سكتت إذ لم تدرِ كيف تفتح الموضوع الذي لم يفارق ذهنها منذ تفرجت على تلك الصور في هذا الألبوم.

ـ بعد أن رأت تشيلسي التوأمين، أرادت أن ترى صورها وهي طفلة.

ـ هذا حسن.

وهز كتفيه وكأنه يرى هذا أمراً تافهاً.

ـ لقد سبق أن تفرجت عليها من قبل.

ـ وهل كانت تطرح الأسئلة عن أمها؟

ـ أحياناً.

تململ في مقعده فجأة بشيء من عدم الارتياح.

ـ هي تعلم بأن أمها ماتت ولم تعد في هذا العالم، وكما سبق أن قلت لك، هي لا تتذكرها كثيراً، وإن كان هذا لا يعني أن هناك الكثير لتتذكره.

لم تمنعها المرارة التي بدت في صوته من متابعة الحديث.

ـ لقد وجدت الصور... مثيرة للانتباه.

قطب جبينه وتصلب جسمه بشكل دفاعي: «من أي ناحية؟».

ـ في كل صوركما مع زوجتك تبدو وكأنها كانت تفضّل لو كانت في أي مكان عدا ذلك المكان.

ـ هذا لأنها كانت فعلاً تتمنى ذلك.

ودعك ذقنه بأصابعه.

وكانت هذه الحركة القلقة تشير إلى غليان داخلي.

ـ لم تكن أنجيلا تتمتع بأي شعور بالأمومة. وزواجها وسكنها في هذه المدينة الصغيرة لم يكن يعجبها. كما أنها لم تمتنع يوماً عن إطلاع أي كان على تعاستها.

ـ ولماذا تزوجتما إذن؟

ابتلعت جينا سؤالها الفضولي وقالت:

ـ كما أنني لم ألحظ شبهاً بين أنجيلا وتشيلسي أو حتى بين تشيلسي وبينك.

كان الاختلاف في لون البشرة واضحاً ومحيراً.

ـ من أين لتشيلسي هذا الشعر الأشقر والعينان الخضراوان؟ فأنجيلا وكل أفراد أسرتك يتميزون بشعرهم الأسود وعيونهم الزرقاء.

توتر فكه وبدت السخرية في عينيه: «افترضت دائماً أن تشيلسي تشبه أباها».

أجفلت لجوابه الغريب هذا، وتملكها الاضطراب. حتى أنها شكّت في أنها سمعته جيداً، فقطبت حاجبيها: «لم أفهم...».

كانت تتوقع جواباً أكثر عقلانية، مثل أن أحد أجداد تشيلسي أورثها هذه الصفات.

وقف غاريت وهو يشتم بصوت خافت ثم سار نحو النافذة ينظر منها إلى ظلمة الليل. أخذت جينا تنظر إليه وقد ساد الجوّ ذلك النوع من التوتر الذي يسبق العاصفة.

كبحت رجفة متوجسة، وجازفت بالتقدم إليه، فقد كشف كلامه عن أمور كثيرة لا تستطيع تجاهلها.

ـ غاريت؟

سألته بصوت هادىء حازم، رغم أن قلبها أخذ يخفق بعنف:

ـ ما الذي كنت تعنيه بأن تشيلسي تشبه أباها؟.

تنهّد بقوة ثم أحنى رأسه. ولسبب ما كانت تريد منه أن يثق بها ويفضي إليها بأي سر أو عبء يثقل كاهله... وإن كانت هي تكتم سرّها الخاص، وتدفنه في الأعماق.

وأخيراً التفت إليها. كان غضبه قد تحوّل إلى إذعان ارتسم على ملامحه وومض في عينيه:

ـ أنا لست والد تشيلسي الحقيقي..

والتوى فمه بابتسامة مرة.

ـ ولا يجري في عروق تشيلسي نقطة من دماء بلاكويل.

وحدقت جينا إليه ذاهلة، بينما هز رأسه شاتماً بصوت خافت وهو يقول بخشونة.

ـ آسف. ما كان عليّ أن أقول أي شيء. أنت الإنسان الوحيد بعد أفراد أسرتي الذي يعلم الحقيقة عن ابنتي، وأتمنى أن تحفظيه سراً.

وهي تحترم طلبه هذا. فسألته: «ولماذا أخبرتني به؟».

فأجاب معترفاً: «ليس لدي مبرر واضح.. ظننت فقط أنك ستتفهمين الأمر».

وقد فهمت، أكثر مما يدرك.

ـ هل لك أن تخبرني بما حدث.

اقترب يجلس بجانبها على الأريكة، مريحاً مرفقيه على فخذيه. بدا متوتراً، مضطرباً، وتمنّت لو تمدّ يدها وتلمسه، لكنها لم تجرؤ، فانتظرت بهدوء أن يقرر ما إذا كان يريد التحدث عن الماضي، أو لا.

بعد ما بدا لها دهراً، كافأها على صبرها:

ـ عرفت أنجيلا بالطريقة التي عرفتك بها تقريباً.

ـ وهل كانت هاربة من حفلة زفافها لتنتهي في ليجر بوينت.

فضحك بصوت خافت: «لا. دعيني أعيد صياغة كلامي. كانت بحاجة إلى العون، وقد أنقذتها».

حضنت إحدى وسائد الأريكة، وهي تتمتم: «كما أنقذتني بالضبط».

كانت تعلم أن هذا الرجل لا يتجاهل من يحتاج إليه.

ـ بالضبط.

قال هذا وعيناه مسمرتان على الأرض.

ـ لقد تعطلت سيارة أنجيلا بالقرب من دانبي، وكنت عائداً من سانت لويس عندما لوّحت لي بيدها، لم أستطع أن أترك امرأة تقف على جانب الطريق وسيارتها جانحة. وهكذا وقفت لأمدّ لها يد العون، على أن أتابع طريقي فيما بعد.

والتفت إليها فرأت اللوم على نفسه مرتسماً في عينيه.

ـ كانت من سانت لويس أيضاً وآية من الجمال والأناقة فسحرتني جاذبيتها على الفور. وعندما قررت البقاء ليلة في دانبي ريثما يتم إصلاح سيارتها، أصرت على أن تدعوني إلى العشاء، تعبيراً عن شكرها. كنت حينذاك في الواحدة والعشرين. وكانت هي جريئة لعوباً ومن الصعب تماماً مقاومتها.

ولم يصعب على جينا أن تتأكد إلى أين أدى كل ذلك فسألته: «هل أقمت علاقة غرامية معها؟».

فتنهد بعمق: «نعم. وبعد خمسة أسابيع، أخبرتني بأنها حامل، فتزوجتها على الفور لأنني أقوم دوماً بالعمل المناسب، وأنا أتحمل مسؤولية تصرفاتي. ولم أكن أريد أن ينشأ ابني بدون أب وأم».

ـ لكن الطفل لم يكن طفلك.

فأجاب بلهجة ساخرة:

ـ فكرت في ذلك عندما ولدت تشيلسي قبل وقتها بشهرين وعندما أكّد لي الطبيب أنها بصحة جيدة وقد أكملت الأشهر التسعة، اتضح لي كل شيء. واجهت أنجيلا بالحقيقة، فاعترفت بأنني لست والد الطفلة. وقد تزوجتني لئلا تلد طفلها خارج نطاق الزوجية ولتتمتع بالاستقرار... رغم أنها لم تكن سعيدة بزواجها أو بحياتها في دانبي.

ـ لكن تشيلسي لا تعرف الحقيقة. أليس كذلك؟

ـ ليست بحاجة إلى معرفة ذلك.

والتهبت عيناه.

ـ إنها ابنتي منذ اللحظة التي ولدت فيها، وأنا شغوف بها. وأياً كان أبوها، فهو لم يهتم لأمرها مثقال ذرة، على حدّ قول أنجيلا، وهذا هو السبب الذي دفعها لتحتال عليّ كي أتزوجها.

ودس يده في شعره.

ـ لم تبق بعد ذلك علاقتنا على حالها... وإن كان هذا لا يعني أن زواجنا كان رائعاً في البداية. لكن خداعها زاد التوتر بيننا. وبعد أقل من سنتين على ولادة تشيلسي، طلبت أنجيلا الطلاق.

بقيت جينا صامتة، عالمة أن هناك المزيد.

ـ لقد تربيت في أسرة متعاطفة، يسودها حب الوالدين، لذا وجدت من الصعب الموافقة على الطلاق، إلاّ أنني عدت ووافقت على الطلاق

لأن كلينا كان تعيساً. ولكنني لم أقبل أن أمنحها الوصاية المطلقة لأنني كنت أعلم أنها تريده الوصاية عليها بدافع الحقد. تشيلسي هي ابنتي وستبقى كذلك. واسمي مدوّن على شهادة ميلادها. كنت مستعداً لمحاربة أنجيلا لأجلها. وقد فعلت ذلك على الرغم مما تنطوي عليه المسألة من معارك.

عضت جينا شفتها عاجزة عن تصوّر مشاعر الألم التي عاناها لأجل ابنته. وتألمت لأجله ولمعاملة زوجته القاسية وهو الرجل الشريف والشهم.

ـ وقبل أن تنتهي دعوى الوصاية، قُتلت أنجيلا في حادث سير، عندما تعطلت مكابح سيارتها. واصطدمت بشجرة ونظراً للعداوة التي بيننا استدعوني فوراً للاستجواب كمشتبه به في الحادثة.

شهقت ذاهلة: «آه، غاريت...».

بدا عدم التصديق واضحاً في صوتها.

وكانت أساريره متجهّمة كالأحداث التي يرويها.

ـ وكما يمكنك أن تتصوري، أصبحت هذه الفضيحة على كل شفة ولسان في البلدة. لم يصدق أحد أنني قادر على اقتراف مثل هذا العمل إلاّ أن خبراً مماثلاً شكل موضوعاً مهماً للأقاويل. وبقيت موضع شك إلى أن قبلت براءتي.

شعرت جينا فجأة بالاختناق واشتدت قبضتها على الوسادة، وهي تدرك أن التحقير الذي سببته أنجيلا لغاريت وأسرته يماثل قدرتها على فعل الشيء نفسه إذا ما ظهر ماضيها. والسر الذي تخفيه لن يسبب لغاريت فقط استياءً إضافياً إذا هي أقحمته فيه. بل سيكون السبب في خسارتها كل السعادة التي وجدتها في دانبي في هذه الفترة القصيرة.

وبينما كانت تحاول أن تهدىء هواجسها، لم تستطع أن تتجاهل الألم الذي رأته في عيني غاريت العميقتين وأن تقدم له التعزية والتفهم

لكل ما عاناه. فقامت بالشيء الوحيد الذي كانت تعلم أنه يخفف من تعاسته... فضغطت براحتها على خده تلامسه برقة وهي تتمتم: «أنا آسفة جداً لمعاناتك تلك».

وعندما أوشكت على سحب يدها، أمسك بها. وأخذ قلبها يخفق بشدة. لم يقل شيئاً وإنما حدق فيها لحظة طويلة. وأخذ يدلّك النبض المتسارع في معصمها ما أشاع الدفء في قلبها وأذاب تصميمها على تجنب الاقتراب منه.

تشبثت بالوسادة وكأنها خشبة النجاة. وتغيرت الحالة النفسية بينهما فجأة وشُحن الجو حولهما، وأخيراً أدركت أنه ما كان عليها أن تتصرف بوقاحة وتلمسه لاسيما أنها تعلم كم يثير غاريت عمل بسيط كهذا. فالمشاعر المتأججة بينهما لا يُستهان بها وما تشعر به نحوه ليس شيئاً عادياً أبداً.

ـ غاريت؟

ارتجف صوتها بمزيج من الشوق والتردد.

ـ أريد أن أعانقك.

تمتم بذلك بصوت أجش، وبكلمات عذبة مغرية جعلت الوهن يتملكها، وأنستها كل منطق لديها.

ـ أريد أن أشعر بشيء نقي... أريد شيئاً يجلب النسيان إلى نفسي.

ابتلعت ريقها بصعوبة، غير قادرة على استنكار طلبه. كما أنها هي أيضاً أرادت أن تنسى ماضيها، ومدى السهولة التي يمكنها بها التسبب بفضيحة أخرى لأسرته. أرادت أن تنسى، لفترة فقط، أنها لا يمكن أن تكون تلك المرأة التي تصلح له والتي يحتاجها في حياته.

قربه منها ودفؤه ملاّ حواسها. ومع ذلك حاولت أن تحافظ على رباطة جأشها.

ـ لا ينبغي لنا.

ـ لقد أنكرنا على أنفسنا هذا مدة طويلة.

وواجهها تماماً، ثم وضع يدها على قلبه لتسمع دقاته القوية وتشعر بحرارته المدمرة.

ـ أكاد أجن وأنا أحاول مقاومتك. عناق واحد فقط...

وأحنى رأسه ببطء يعانقها... بنعومة وقدرة على الإقناع. وتأوهت برقة وهي تغمض أهدابها وتستسلم له، مرحبّة به، تبادله عناقه بنفس السعادة والبهجة.

وعندما اصطدم بالوسادة التي كانت بينهما أمسكها وألقاها على الأرض، ولم يبق لها ما تتمسك به سواه، فأحاطت عنقه بذراعيها فأدناها منه تدريجياً واستسلمت إلى إرادة هذا الرجل وإلى تلك المشاعر الرائعة التي بعثها فيها، ما جعلها عاجزة عن التفكير في ما قد يؤدي إليه هذا العناق بعد أن تطور من تلك اللمسة التي عنت بها التخفيف من تعاسته، إلى هذا العناق العاصف الذي جعلها تشعر بالأمان والإطمئنان وبأنها مرغوبة للغاية.

وإذا بقلبها يرقص طرباً... فلم تشعر قط بمثل هذه السعادة وهذا الشوق إلى رجل. ويستمر... تسلّلت يده إلى شعرها، فتأوهت برقة.

ثم تملكها الذعر لوضعها هذا... فعلى الرغم من لهفتها إلى غاريت، كانت تدرك أن الاستسلام له أمر فظيع على مختلف الصُعُد. أضف أنها ليست مستعدة للتخلّي عن آخر ذرة احترام ما زالت تعتبر نفسها تملكها، خصوصاً من دون حب...

يبدو أنه أحس بشكوكها دون أن تنطق بها، فرفع رأسه، واشتبكت عيناه بنظراتها برقة تناقض ما يسري في جسمه من توتر.

ارتسمت على زاوية فمه ابتسامة، وسألها وهو يداعب وجنتها بأصابعه.

ـ هل أطلب الكثير؟

تنفست بعمق وهي تومىء برأسها غير قادرة على الكلام.. شعرت بوجهها يتوهج وأخذت ترتب ثيابها مفرغة كل اهتمامها على هذه المهمة. أمسك بيدها فلم تجد خياراً سوى النظر لترى المشاعر العميقة التي كشفها هذه الليلة، وذهلت وهي تدرك أنها ليست الوحيدة التي شعرت بذلك التغير البالغ الذي حصل بينهما.

ـ جينا... لقد تعبت من مقاومة ما هو بيننا مهما كان نوعه. أنت المرأة الوحيدة التي رغبت فيها... وأردتها حقاً، ومنذ فترة وأنا أفكر في ما إذا كان بامكاننا التروّي بالأمور ثم نرى إلى أين قد تصل بنا الأمور؟.

دفعتها غريزتها إلى أن تسرع بالقول (لا)... إلى أن تصغي إلى ذلك الصوت في داخلها الذي يهمس لها بأنها ليست المرأة المناسبة له. من الحماقة أن تسمح له بدخول قلبها لكن بصيص الأمل الذي بدا على ملامحه، ورغبتها في كل ما يقدمه إليها، منحاها الشجاعة لتقول الكلمة الوحيدة التي يمكنها بها الإدعاء، لفترة قصيرة، بأن هذا الأمير الفاتن لها.

ـ نعم.

همست بذلك، آملة بألاّ يستحيل شوقها الأناني صدمة تؤلم أكثر شخصين يعنيان لها.

* * *

٩ ـ ستسدل ستار الماضي

ـ اصطدت واحدة. . . اصطدت واحدة.

فرّق صوت تشيلسي المغتبط سرباً من الطيور التي اندفعت في الجوّ في كل اتجاه. ووقفت الفتاة الصغيرة على ضفاف البحيرة حيث أمضوا عصر يوم الأحد هذا، وصنّارة السمك بيدها وعلى فمها ابتسامة عريضة.

ـ أبي، جينا انظرا ما أكبر هذه السمكة. لقد اصطدتها وحدي!

وحاولت تشيلسي التغلب على سمكة السلمون المرقطة التي كانت تتململ وتنزلق من بين يديها.

وصدحت ضحكة جينا المرحة الخالية البال لتلف غاريت بنعومة كدفء النسيم. كان قد اعتاد تمضية الأوقات مع جينا. وقف على البطانية المفروشة تحت شجرة وارفة الظلّ، ثم توجه إلى ابنته.

ـ أحسنت يا تشيلسي.

كانت السمكة لا تتجاوز الخمسة إنشات طولاً، لكنها أكبر سمكة اصطادتها تشيلسي على الإطلاق. وتابع أبوها قائلاً: «لا بد أن سبب وقوعها في الصنارة هو تلك الدودة اللذيذة التي وضعتها طعماً لها».

ـ أظنك على صواب.

ونفخت صدرها افتخاراً، مزهوة بإنجازها.

ـ هل يمكننا أن نطهوها للعشاء الليلة؟

فضحك غاريت.

ـ تبدو عشاءً كافياً. يمكننا أن نقليها لعشائك.

ونزع السمكة عن الصنارة وألقى بها في دلو قريب. ثم غسل يديه في البحيرة.

ـ سننظفها عندما نصل إلى البيت. هل تريدين أن تحاولي اصطياد سمكة أخرى؟

فكرت تشيلسي لحظة، ثم أجابت:

ـ ربما فيما بعد. هل يمكنني الذهاب لأقطف تلك الزهور البرية في الحقل؟

كأي فتاة في مثل سنها، سئمت عملها المتواصل وأرادت أن تنتقل إلى شيء جديد. وأجاب أبوها: «بكل تأكيد ما دمت تبقين قريبة منا».

تحوّل التعبير على وجهها إلى نظرات ماكرة.

ـ أريد أن أصنع تاجاً من الأقحوان لجينا.

همست بذلك خفية. ثم انطلقت وشعرها الحريري الأشعر يلمع في الشمس.

عندما عاد إلى جينا، كانت مستلقية على العشب، تنظر إلى الغيوم البيضاء التي تنساب بعيداً في السماء. بدت له رائعة الجمال بشعرها القمحي اللون المسدول على كتفيها وخصلاتها الوحشية، وعينيها اللتين تتألقان سعادة، وملامحها المسترخية. وعندما تمدّد بجانبها مستنداً على ساعديه ليصبح قريباً منها، قال في قرارة نفسه إن بإمكانه أن يتأملها لساعات بدون أن يملّ نظره منها.

قبل شهر، لم يكن يظن مطلقاً أنه قد يكنّ لامرأة مثل هذه العاطفة الغريبة، خصوصاً جينا. ولكن عندما أخبرها عن أنجيلا منذ أسبوع، ولد بينهما رباط راح يتوطّد في كل يوم يمضيانه معاً.

وازدادت رغبة غاريت في أن يكون معها، ويرى ابتسامتها ويسمع

صوتها أثناء العمل، ويوافيها إلى البيت في الأمسيات. أما في الليل بعد العشاء، وبعد أن تخلد تشيلسي إلى النوم، فلم يكن إقناع جينا بالبقاء مدة أطول صعباً فكانا يجلسان معاً على أريكة أمام التلفزيون يأكلان «البوشار»، أو يتحدثان بأمور مختلفة أو يتبادلان أحاديث شخصية حميمة. بقيت علاقتهما خاصة، لكنها تحوّلت لتصبح شاعرية وأكثر عاطفية.

كان يداعب خصلات شعرها العطرة بأصابعه فتدير رأسها إليه باسمة. وعندما يكونان بمفردهما، كانا دوماً يتبادلان العناقات.. لم يكن يرتوي من جمالها، لكنه احتفظ بوعده آخذاً الأمور بحذر وروية، فكان دوماً ينهي الأمور قبل أن تخرج عن السيطرة.

بقي جزء منه حذراً متحفظاً بشأن شعوره نحو جينا، إلا أن قلبه أخذ يلين، سامحاً لهذه المرأة المحبة الدافئة الشعور بأن تحتل ذلك المكان البارد المظلم الذي نحته أنجيلا في قلبه بخيانتها. ربما بعثوره على عروس تائهة عثر أيضاً على امرأة تلائمه تماماً أكثر من أي امرأة أخرى. امرأة يمكنه أن يأتمنها على قلبه وروحه.

قالت فجأة بصوت أبح أسر انتباهه، مبدداً هذه الفكرة المفاجئة من ذهنه: «ما بالك؟ منذ مدة لم أرَ هذا التقطيب على وجهك. الأفكار الجادة غير مسموح بها اليوم».

ومدّت يدها تمرّ بأصابعها على جبينه المغضن تمهّده برفق.

ـ نعم، يا سيدتي.

وأمسك بيدها يقبّل راحتها.

ـ هل أنت مسرورة في هذا النزهة؟

تنهدت راضية: «إنها رائعة! شكراً لدعوتك لي. لقد استمتعت حقاً معك ومع تشيلسي. إنها محظوظة لأنك أبوها. هل تعلم ذلك؟».

رغم أن جينا كانت تعلم الحقيقة عن أبوّته، لم تجعله يشعر بأنه

أقل من والد تشيلسي الحقيقي. فهو كان كذلك فعلاً في كل الأمور.

ـ أظن أنني محظوظ كونها ابنتي.

والتفت ينظر نحو حقل الزهور البرية فرأى تشيلسي تطارد فراشة وقد نسيت ما ذهبت لأجله. وابتسم.

ـ لولاها لكانت الحياة مملة للغاية.

أخذت جينا تمرّر أصابعها على وجنته، فرفع بصره إليها. وانقبض قلبه للكآبة التي بدت في عينيها وهي تهمس:

ـ يا ليت أبي شعر نحوي بذرة مما تشعر أنت به نحو تشيلسي!.

كانت كآبتها بالغة، وشعورها نحو الأب الذي لم يتدخل في حياتها قوياً إلى حد جعل الألم يتملكه بسبب ما حُرمت منه. وسألها:

ـ ما الذي حال دون معرفتك لأبيك؟

عادت ترفع بصرها إلى السماء، فبدا له أنها تفضل ألاّ تجيب عن هذا السؤال.

لكنه لم يشأ أن يستسلم بهذه السهولة، خصوصاً بعد أن حدثها بكل شيء عن أنجيلا. وبلمسة خفيفة من إصبعه أعاد وجهها إليه.

ـ أخبريني يا حبيبتي. لو كنت غير مهتم بك لما سألتك. أريد أن أعرف من هي جينا فيليبس، ومن أين جاءت وأين كانت. هل أطلب الكثير؟

عضت شفتها السفلى، وبدا أن عدم الاطمئنان يتسع في عينيها المتفحصتين، حتى أنه خيّل إلى غاريت أنه رأى فيهما نوعاً من الخوف.

ثم هزت رأسها وقالت برقة فائقة: «لا. لست تطلب الكثير».

ضحك محاولاً تلطيف الجو: «أخبريني إذاً».

ابتسمت له: «من الصعب رفض طلب لك. هل تعلم هذا؟».

فقال مداعباً: «أتعنين أنه لا يمكن مقاومتي؟».

ـ نعم. ربما هذا ما أعنيه.

وأزاحت خصلة من شعره كانت قد تدلّت على جبينه. فتكهن بأن هذه حيلة منها لتأجيل الجواب. ولكنهما سيمضيان بقية اليوم معاً، وسينتظر بصبر حتى تخبره بقصتها.

وبعد أن مرّت لحظة طويلة هادئة، تكلمت أخيراً: «كانت أمي في السابعة عشر عندما حملت بي وأنكر صديقها حينذاك أبوّته لأنه لم يشأ تحمّل مسؤولية طفل. ثم نفاها من حياته تماماً، وبهذا انتهت علاقتهما».

وخفضت جينا بصرها، ولكن بعد أن لمح بريق الحزن في عينيها.

ـ وأخبرتني أمي أن أبويها ساءهما ما حصل ولم يوافقا على قرارها بالاحتفاظ بي فطرداها من البيت ورفضا مساعدتها.

نظر إليها مصعوقاً، عاجزاً عن فهم كيف أن أسرة تطرد فرداً منها.

ـ وماذا فعلت أمك؟

ـ لقد احتفظت بي وأنا شاكرة لها جداً لأنها لم ترسلني إلى دار أيتام، لكن هذا القرار أحزن أمي كثيراً وغيّر مجرى حياتها.

اقترب غاريت منها وهو يسند رأسه براحته في حين كان يسمع تشيلسي تغني أغنية بلحن ناشز.

ـ وكيف هذا؟

ـ لم تشفَ قط من تأثير رفض أبي.

وتنهدت جينا ثم تابعت كلامها.

ـ عندما ولدت أنا، كانت تعيش في «ويسكنسن» وتكافح لكي نعيش أنا وهي بكرامة، ثم قابلت رجلاً يدعى «ويد»، لا أذكر الكثير عنه، لكنها لحقت به إلى هنا، إلى ولاية «ميسوري». وبعد ذلك تركها، وعُدنا وحدنا مرة أخرى. ولسوء حظ أمي، تكررت محنتها هذه مع الرجال عدة مرات على مر السنين.

شبك غاريت أصابعه بأصابع جينا، ثم سألها: «ألم تتزوج أمك قط

بعد ذلك؟».

فهزت رأسها: «لا. ولكن ليس لأنها لم ترغب في ذلك، بل لأنّ علاقاتها لم تكن تدوم طويلاً. ودوماً كان الرجل هو من يتخلّى عنها. لقد أمضت حياتها تبحث عن الرجل الذي يمنحها الاطمئنان والاستقرار الذي تنشده».

ـ والاحترام.

أضاف ذلك بدون وعي. وقد أدرك أخيراً من أين نشأت هذه الرغبة عند جينا.

أجفلت لتعمقه في مشاعرها. لكنها لم تنكر ذلك.

ـ نعم. وأرادت لي الشيء نفسه.

وابتلعت ريقها وقد نضح صوتها بالمشاعر، ثم تابعت: «لكن أكثر ما أخشاه هو أن ينتهي بي المطاف مثل أمي تماماً... عزباء وحيدة».

وإذ شعر بأن عليه أن يقنعها بخلاف ما تعتقد، مال فوقها بحيث لا ترى سواه. وأحاط وجهها براحتيه الكبيرتين، ثم حدق في عينيها:

ـ أنت إحدى أكثر النساء، اللاتي أعرفهن، احتراماً يا جينا.

وحاولت أن تحوّل نظراتها وكأنها لم تصدق ما قال، لكنه لم يدعها تفعل، وتابع يقول:

ـ بالرغم من عنادك واستقلالك، أنت مُحبة كريمة، وقد بدأت أظن أن شيلدون أحمق لأنه سمح لك بالرحيل.

فرفعت ذقنها تدافع عنه: «لدى شيلدون أسبابه التي جعلته ينهي علاقتنا».

لكن هناك ما هو أكثر بكثير. فقد رأى الألم في عينيها وملامحها، لكنه خاف إن هو ألحّ عليها، أن تمتنع عن الكلام. مهما كان سبب هربها في يوم زفافها، فقد أراد غاريت أن تثق به وتقول الحقيقة.

لذا اكتفى بهذا الحدّ، وراح يداعب شعرها الناعم بيده. وابتسم

عندما التفّت على إصبعه خصلة شعر صغيرة، تماماً كما التفّت هي حول قلبه لتأسره جسداً وروحاً. أراح يده الأخرى على خصرها ثم أدناها منه ببطء، ثمّ مال فوقها يسترها عن عيني تشيلسي. أظلمت عيناه وتسارعت خفقات قلبه عندما تغيّر الجو حولهما وأصبح مشبعاً بالمشاعر الحميمة التي كانت تتصاعد بينهما مع كل ثانية تمرّ.

لم يستطع أن يقاوم رغبة في معانقتها، فأحنى رأسه ببطء وانخفضت أهدابها. ومع أنه كان متلهفاً إلى معانقتها إلا أنه تركها تستهل العناق فبعد تلك العناقات الخاطفة التي كانا يتبادلانها، أصبحا منسجمين متناغمين أكثر فأكثر.

ولكن... يا له من عناق! كان مشبعاً بالمشاعر الرائعة، الدافئة، وقد عبّرت عن مشاعرها إلى حد كان ليجعله يركع لو أنه واقف. لقد ذابت بين يديه، بحيث شعر بأن وضع هذه المرأة بين ذراعيه هو الوضع الصحيح الملائم.

وضعت يدها على صدره تتحسس ضربات قلبه. وقابلت نظراته بابتسامة أنثوية على شفتيها الورديتين.

ـ لقد اعتدت تماماً على هذا.

فقال بابتسامة عريضة: «نعم، وأنا أيضاً».

وإذا بصوت تشيلسي يناديها وهي تقترب منهما.

ـ جينا... لقد أحضرت لك شيئاً.

أجفلت جينا لصوت ابنته وحاولت الابتعاد عن غاريت لكنه شدّد من احتضانها وبقي ممسكاً بمعصمها ونظرت إليه جينا متلهفة وهمست متوجسة: «ليس هذا وقت العبث. سترانا تشيلسي».

أخذ ينظر إلى وجنتيها اللتين توهجتا احمراراً.

ـ وماذا لو رأتنا تشيلسي معاً؟

فتحت فمها ثم عادت فأطبقته. وحدّقت إليه وكأنها لم تجد قاعدة

صلبة للمناقشة، لكنه لم يخطىء في رؤية السؤال الذي يجول في عينيها، وهو ما الذي بالضبط كان يعنيه بذلك؟.

ـ لا أريد أن نخفي علاقتنا.

لم يكن يريد امرأة أخرى في حياته. وقد تعب من مقاومة مشاعره نحو جينا، فأراد أن يعلم الجميع بأنها له.

ـ ولا أريد أن أخفي حقيقة أننا، أنت وأنا، نرى بعضنا البعض.

غلّف الذهول ملامحها. وبينما كانت تستوعب هذا التصريح المفاجىء، كان قد جلس وجذبها لتجلس بجانبه في الوقت الذي وصلت فيه ابنته وهي تلهث بحماسة.

بدت ابتسامة سعيدة على وجه تشيلسي: «احزري ما فعلته لأجلك».

قالت ذلك لجينا وهي تخفي مفاجأتها خلف ظهرها. ولكي تتجاوب مع تشيلسي في اللعب، تصنعت جينا التفكير:

ـ غطاءً من الأقحوان.

فانفجرت تشيلسي ضاحكة بابتهاج.

ثم مدت يدها تريها هديتها: «تاج من الأزهار».

كانت قد صنعت بمهارة إكليلاً من الأزهار بشكل تاج. حتى أن غاريت نفسه تأثر لمهارة ابنته الفنية. قالت لها: «صنعته خصيصاً لأجلك».

ـ آه، يا حبيبتي! ما أجمله!

وتألقت في عيني جينا دموع التأثر وهي تقول لتشيلسي:

ـ هلاّ منحتني الشرف بأن تلبسيني إيّاه بنفسك؟.

ـ بكل تأكيد.

ووقفت تشيلسي خلف جينا ووضعت التاج على رأسها ثم دارت حولها تنظر إليها متفحصة.

ـ تبدين جميلة جداً يا جينا، مثل الأميرة بالضبط.

وركعت أمام جينا وغاريت، وأخذت يد أبيها تضعها فوق يد جينا.

- بإمكان أبي أن يكون أميرك، ثم نعيش جميعاً بسعادة إلى الأبد.

حبست جينا أنفاسها عند سماعها كلمات تشيلسي هذه، التي ذكّرت غاريت بما قالته جينا عندما رآها لأول مرة في حانة «ليجر بوينت».

- كان من المفترض أن أتزوج أمير الأحلام، ونعيش بسعادة إلى الأبد. أظنني لست ماهرة في التمنيات.

ابتسمت جينا لتشيلسي وقالت برقة: «نعم، سيكون ذلك حسناً».

قالت ذلك رغم أنه بدا واضحاً لغاريت أنها لم تصدّق أن مثل هذه الحكايات الخرافية قد تتحقق.

* * *

نزلت جينا السلم على أطراف أصابعها خشية أن توقظ «إيلاني» أثناء نزولها إلى المطبخ في منتصف الليل. بعد حديثها مع غاريت عصر هذا اليوم في النزهة لم تستطع النوم. وفكرت في أن شيئاً من الحلوى قد يريح أفكارها المضطربة.

وضعت على المائدة طبقاً من الحلوى، ثم جلست تأكل وهي تحاول أن تجمع شتات أفكارها القلقة المتعلقة بغاريت: «لا أريد أن نخفي علاقتنا».

يعني أنه مستعد لإعلان علاقتهما بشكل رسمي. وبما أن الأمان والطمأنينة يكمنان في سرية علاقتهما، أصبحت الآن مرغمة على أن تقوم بالاختيار الذي تجنبته منذ وصولها إلى «دانبي». وهذا الاختيار الصعب قد يغيّر كل شيء بينها وبين غاريت... إما إلى الأفضل وإما إلى الأسوأ... وهذا وقف عليه هو، وعلى ردة فعله إزاء ماضيها المشين.

إنها مجازفة كبرى أن تخبر غاريت بحقيقة سرّها الدفين! لقد أخفت عن غاريت جزءاً كاملاً من ماضيها.

لم يكن سرها فظيعاً مثل خداع زوجته الراحلة، إلا أن عدم صدقها

يماثله تضليلاً. ولو فضح أحدهم أمرها، لسبّب ذلك الألم لغاريت ولأسرته.

ولكن عليها أن تأخذ سمعتها بعين الاعتبار وتستعد لإمكانية خسارة الاحترام الذي حظيت به بفضل غاريت، وقبول مجتمع هذه المدينة لها. لقد شعرت أخيراً وكأنها تنتمي إلى مكان ما... مكان يمكنها أن تُظهر فيه شخصيتها الحقيقية، بدون ذلك التظاهر الزائف الذي جذرته أمها في نفسها، أو ذاك المظهر المهذب الذي أراد شيلدون أن يكمل به صورتها في ذهنه. هنا في دانبي كانت جينا فيليبس فقط، وبكل كبرياء. ومجرد التفكير في فقدان هذا الشعور بالرضا، جعلها تتألم... بعد أن يكتشف سرها.

ما أكثر الندم، وما أكبر المجازفة! ولكن يحق لغاريت أن يعلم ما فعلته، ولماذا وقفت أمام الكاميرا لتؤخذ لها صور لأجل «كاتالوغ» الملابس الداخلية ذاك. يحق له أن يقرر ما إذا كان يريد أن يلاحق امرأة لها مثل ذلك الماضي المخجل... ذلك الماضي الذي لا يمكن أن يُمحى أو يُنسى والذي سيبقى دوماً جزءاً منها. لقد عاملها بصدق واحترام، وهو يستحق أن تبادله بالمثل. ولأنها، أخيراً، وقعت في غرام غاريت بلاكويل، وكانت تريد معه ما أمضت أمها حياتها بأكملها تفتش عنه دون أن تعثر عليه لنفسها.. كانت جينا متلهفة إلى أن يبادلها الحب رجل تحبه، وأن تكون محترمة لذاتها ولما هي عليه.

وإذا كان عليهما أن يمضيا أيامهما المقبلة معاً، عليها إذن أن تخبره بالحقيقة. وعليها أن تثق في أنه سيتفهم أسبابها، وأنه لن يحكم عليها بسبب عمل اضطرت للقيام به.

غسلت صحنها الفارغ ثم أخذت نفساً عميقاً. لم يبق عليها الآن إلا أن تجد الوقت والمكان المناسبين للكشف عن كل شيء.

* * *

١٠ ـ غداً يوم آخر

هذه الليلة هي الليلة... هذا ما قررته جينا وهي تنزل السلم لتنتظر غاريت في أول (موعد) رسمي لهما. كانت قد أجّلت هذا الحديث الذي لا مفرّ منه مدة طويلة... أطول مما كانت تنويه في الأساس عندما قررت أن تخبره الحقيقة عن ماضيها. لم تجد فرصة مناسبة أثناء الأسبوع لتثير الموضوع، والآن أخذ الشعور بالذنب يثقل ضميرها، وهو شيء ترفض أن تدعه يلوّث علاقتها المتنامية مع غاريت.

هذه الليلة ستكون الليلة الحاسمة، وأقسمت جينا على ذلك.

لقد طلبت ليزا أن تأتي تشيلسي لتبيت عندها وتمضي بعض الوقت مع التوأمين، فأراد غاريت أن ينتهز الفرصة ليدعو جينا إلى العشاء خارج المنزل. ولأنها لم تشأ أن تفسد موعدهما بالحديث عن سرها، قررت أن تفاتحه بالموضوع قبل أن تنتهي السهرة.

دخلت غرفة الجلوس وابتسمت «لإيلاڤي» صاحبة المنزل العجوز التي كانت جالسة تطرز قماشاً بين يديها. نظرت المرأة إليها من فوق حافة نظاراتها، ثم قالت بحيوية:

ـ آه، ما أجملك!

ـ شكراً.

وأخذت جينا تسوي بخجل ثوبها الخوخي اللون الذي اختارته

لترتديه لهذا الموعد الحميم.. كان الثوب مصنوعاً من قماش حريري محكم التفصيل على صدرها وخصرها، ثم يتسع عند الوركين وحول ركبتيها بطريقة تظهر ساقيها الرشيقتين. تركت جينا خصلات شعرها الجعدة تنسدل كشلاّل على كتفيها وظهرها، تماماً كما يحبهما غاريت. أرادت أن تبدو أمامه رائعة الجمال، أنثوية المظهر وأن يشعر بالزهو للظهور معها.

أجفلت في أعماقها لأفكارها هذه التي تكشف عن عدم اطمئنان. ورغم كل القوة التي اكتسبتها في الأسابيع الماضية، كانت لا تزال تشعر بشيء من الضعف لم تستطع التخلص منه، لكن هذه الليلة بالغة الأهمية بالنسبة إليها، وذلك لأسباب كثيرة، وستكون كاذبة إن لم تعترف بأنها متوترة الأعصاب.

عادت «إيلاڤي» تتأرجح في مقعدها الهزاز، وهي تسألها: «إلى أين أنت ذاهبة في ليلة السبت البديعة هذه؟».

ـ أنا ذاهبة للعشاء مع غاريت.

ونظرت إلى ساعتها شاعرة بالإثارة والقلق في الوقت نفسه.

ـ سيكون هنا في أي لحظة.

ـ لقد حان الوقت لكي يدعوك هذا الفتى، للخروج معه.

قالت «إيلاڤي» هذا وهي تومىء برأسها راضية.

ـ لقد أبطأ في إنشاء هذه العلاقة، ولكن يساورني شعور بأنه سيجعلها علاقة دائمة.

ـ هذا ما أرجوه.

قالت ذلك بنعومة، لتدرك بعد فوات الأوان أنها أفصحت عن أفكارها بصوت مرتفع.

وضعت المرأة القماش الذي تطرزه جانباً ونظرت إلى جينا بإمعان: «الأمور بينكما جادة، أليس كذلك؟».

جلست جينا على الأريكة، وهي تهز كتفيها بعدم اهتمام، لكنها لم تستطع أن تمنع التوهج الذي كسا وجنتيها بالاحمرار:

- وجودي معه يفرحني، وكذلك مع تشيلسي.

كان هذا كل ما أرادت أن تعترف به حالياً لإيلاڤي، أو لأي شخص آخر. فليس من الضروري أن يعلم أحد أن الأب والابنة قد أسرا قلبها في مثل هذه الفترة القصيرة.

بدت على فم المرأة ابتسامة ذات معنى.

- أرى في عينيك نفس التألق الذي شعرت به نحو حبيبي «بيرون» عندما بدأ يغازلني لأول مرة وذلك منذ سنوات كثيرة.

وضغطت على صدرها بيدها وتنهدت: «آه، يا ليت الشباب يعود يوماً فأعشق مرة أخرى!».

أجفلت جينا لما قالته المرأة، وحوّلت عينيها عنها. لكنها لم تستطع أن تنكر بأنها تشعر بشيء من الدوار لمجرّد التفكير في غاريت.

رن جرس الباب، فقفز قلب جينا، وابتسمت «إيلاڤي»:

- يبدو أن حبيبك قد جاء.

حبيبها... وأحبت جينا هذه الكلمة. تنفست بعمق وارتياح ثم اندفعت واقفة وذهبت تفتح الباب. لكن الرجل الواقف عند عتبة الباب خطف منها الأنفاس، فعلى الرغم من أن غاريت كان يبدو دائماً جذاباً، رأت فيه الآن شيئاً جعله يبدو مثل أمير أحلامها بشعره الأسود وعينيه الزرقاوين الجذابتين اللتين كانتا تنظران إليها بالشعور نفسه الذي راحت هي تنظر فيه إليه. كان قد بدّل بنطلونه الجينز وقميصه البسيط ليرتدي قميصاً بنياً وبنطلوناً يناسبه.

وكان يحمل باقة من الورود، قدّمها إليها قائلاً: «هذه لك».

شعرت بغصة في حلقها منعتها من النطق. وتناولت منه الورود شاعرة بقلبها يذوب لهذه اللفتة الحلوة. وأخيراً استطاعت أن تقول:

«الورود رائعة، يا غاريت. شكراً».

- على الرحب والسعة.

وضحك لها فبدأ أصغر سناً وصبيانياً. فقالت وهي تتنحى جانباً:

- أدخل. سأذهب لأضع الورود في الماء. سأعود بعد دقيقة.

ولأنها كانت بحاجة إلى فترة تستعيد فيها رباطة جأشها، اتجهت إلى المطبخ، مصغية إلى غاريت وهو يحدث إيلاڤي. عثرت على مزهرية في الخزانة فملأتها بالماء وأخذت تنظم الورود فيها بعناية.

كانت مستغرقة في أفكارها فلم تسمع خطواته وهو يدخل المطبخ. وعندما أحاط خصرها بذراعيه من الخلف ثم ضمها إلى صدره، شهقت مذعورة، وقد التهب قلبها شوقاً.

- جمالك ورائحتك يجعلانك تبدين كملاك.

قال هذا في أذنها، ثم دفن وجهه في شعرها وهو يتنشق شذاه بعمق.

ارتجفت سروراً. وأغمضت عينيها مستمتعة بكل ما يبعثه في قلبها من مشاعر.

مدت يدها إلى الخلف تمرّ براحتها على وجنته: «وأنت أيضاً تبدو وسيماً وجذاباً».

ضحكته الخافتة دغدغت أحاسيسها: «يا لنا من ثنائي! أمامنا السهرة بأكملها نمضيها معاً. هل أنت مستعدة للذهاب؟».

وبدا في عينيه إغراء لا يقاوم.

أومأت برأسها وهي مستعدة لأن تتبعه إلى أي مكان.

عندما تركا إيلاڤي، أخذها غاريت للعشاء في أفضل مطعم في المدينة، وطلبا زاوية منعزلة وشموعاً على المائدة ما أضفى على المكان جواً شاعرياً حميماً. وعندما أخذ الجميع ينظرون إليهما باهتمام كان غاريت يُظهر بصراحة اهتمامه بها وعطفه عليها ويصر على الإمساك

بيدها، رافضاً إخفاء حقيقة حبهما.

قصدا السينما لمشاهدة قصة عاطفية ثم أخذا يسيران في الشارع ويتفرجان على المتاجر التي ينيرها ضوء البدر والنجوم التي ترصّع السماء. وغالباً ما كان يتوقف ليعانقها فتتأجج مشاعرها حباً. ولأن جينا لم تشأ أن تشتت جمال هذه السهرة، لم تستطع إثارة الموضوع الذي أرادت الإفصاح عنه.

ولكن، مثل ساندريلا وأميرها، دقت الساعة الثانية عشرة، لتذكّرها بأنها تجنبت بما يكفي ما لا مفرّ منه. توجها نحو الشاحنة ثم جلس غاريت وراء المقود، ومدّ ذراعه نحوها ليبعد شعرها المنسدل عن وجهها، ثم أخذ يلامس عنقها.

ـ تودين أن أقلّك إلى النزل، أم تفضلين العودة معي إلى بيتي لبعض الوقت؟

سألها هذا بصوت ينضح بالإغراء.

ـ لا أتوقع أن يعود ريلان إلى البيت الليلة.

كان تلميحه واضحاً. فهما سيكونان وحدهما. وكان هذا بالضبط ما تحتاجه لتكشف عن سرها... لكي تخبره بحقيقة ماضيها، ولتستجمع شجاعتها لتضع مستقبلها بين يدي غاريت.

ـ إلى بيتك.

همست بذلك، ثم شعرت بقلبها يخفق وهي ترى على شفتيه ابتسامة تفيض رجولة.

ولكن عندما وصلا إلى بيته. بدا واضحاً أن الحديث الجاد لم يكن وارداً في برنامج غاريت. قادها إلى غرفة الجلوس حيث أخفض الأنوار خالقاً بذلك جواً شاعرياً، وسرت في جسدها رعشة، وفي عروقها برودة مفاجئة غير متوقعة.

نظر غاريت إليها مفكراً: «أتريدين شيئاً تشربينه؟».

وأخذ يفرك ذراعيها صعوداً ونزولاً، ليدفئها.

ـ ربما كوب شاي؟

جلست على الأريكة وأجابته: «لا بأس بكوب من الشاي».

قالت ذلك آملة أن يهدىء ذلك عدم الإطمئنان الذي يسري في كيانها، ويعيد إليها الشجاعة التي تحتاجها لتتمكن من اجتياز محنة الحديث القادم.

تركها وحدها مع أفكارها، لكنه عاد بعد دقائق قليلة، لم تكفها للتفكير في وسيلة سهلة للتعبير عما يدور في ذهنها.. ناولها كوب الشاي، ثم جلس بجانبها... وكان قربه منها يشبع حواسها بشوق مألوف جاهدت في مقاومته.

داعب خصلة ملتوية من شعرها ثم شدّها ليجتذب انتباهها.

ـ آه، وأخيراً وحدنا.

تشابكت نظراته بنظراتها على ضوء المصباح الذهبي، فابتسمت:

ـ أتظن أن تشيلسي تستمتع مع التوأمين؟

وأخذت جرعة من الشاي الذي استقر في معدتها دافئاً مريحاً.

ـ أنا واثق من أنها تساعد ليزا. كانت متحمسة للغاية لتمضية الليلة مع التوأمين.

وضحك وهو يداعب ذقنها بأصابعه.

ـ أتعرفين؟ كنت أريد أن أشكرك على ما فعلته لأجل تشيلسي.

ضحكت بمرح، محاولة التفكير أن لديها مهمة عليها أن تؤديها الليلة. وهي لا تودّ أن يلهيها أي شيء عنها.

ـ أنا لم أفعل شيئاً على الإطلاق. فأنا أستمتع بتمضية الوقت معها.

وأخذت جرعة أخرى من الشاي مدركة أن الكوب يكاد يفرغ.

ـ لقد اعتادت تشيلسي عليك حقاً. وهذا لا يدهشني لأن هذا ما حصل معي أيضاً.

وأخذ كوب الشاي من يدها ووضعه على الطاولة أمامهما. وعندما عاد إلى جانبها أحنى رأسه قائلاً:

- كنت أفكر في أنك ربما تودّين متابعة الاهتمام بتشيلسي بعد أن تعود ليزا إلى المكتب، راتبك طبعاً سيبقى هو نفسه. لكنني لا أريد أن تظني أن هذا هو السبب الوحيد الذي يجعلني أقدم هذا العرض.

أغمضت عينيها، ثم تنهدت.

أضاف: «أريد أن تأتي إلى هنا كل عصر ومساء».

أخذ قلبها يخفق بعنف... عليها أن تخبر غاريت بالحقيقة، وعادت الشكوك والمخاوف تتملكها لتهزّ كيانها.

رفع رأسه وقد كست ملامحه رقة وحنان غير محدودين: «إنك ترتجفين يا جينا. هل أنت متوترة الأعصاب؟».

سألها هذا بصوت منخفض رقيق.

هل كان بمثل هذا التناغم معها؟ أم أنها شفافة جداً؟

- نعم... قليلاً.

همست بذلك، لكنه لا يعلم بعد بالسبب. وقطب جبينه باهتمام:

- هل أنا من يجعلك متوترة الأعصاب؟

ابتلعت غصة شعرت بها في حلقها. أزاحت بيدها خصلة من شعره كانت قد تدلّت على جبينه.

- لا، لست أنت سبب هذا التوتر.

وإنما أنا أكاد أموت خوفاً من أن أفقدك عندما تعلم ما الذي فعلتُه.

أمسك بيدها يطبع قبلة على راحتها.

- إذن ما الذي أجعلك تشعرين به؟

وجاءه الجواب بسهولة: «آمنة، مطمئنة، مرغوبة».

ومحترمة... وخافت من أن تخسر هذا أيضاً.

كانت ابتسامته متراخية ومثيرة للغاية.

- أنا مسرور لذلك.

واتكأ على الأريكة وأدناها منه، فارتمت بين ذراعيه.

- أتعلمين أننا لم نجلس على انفراد منذ يومين؟ أشعر وكأنني أصبحت مدمناً.

- هل تقصد أنك ضيعت وقتاً وتريد التعويض عنه؟

مد يده إلى رقبتها وراح يمسد عضلاتها المتوترة ما جعلها تشعر بالاسترخاء، وتمتم: «ربما هذا ما أقصده».

حبست أنفاسها، استرخى جسدها مستجيباً بينما حثها عقلها على الابتعاد عنه.

- غاريت...

- لا أريد مزيداً من الكلام، يا جينا.

ثم تابع قائلاً: «لقد تحدثنا طوال المساء. والآن نحن وحدنا، أنت وأنا فقط... ولدي فكرة مختلفة عن مجرد الكلام».

ونظر إليها بعينين ألهبتهما المشاعر، فلم ترغب إلا في أن تضيع في نظراته ولا تعود إلى الواقع أبداً، ما أكثر ما تشعر به نحو هذا الرجل.

واستسلمت لعناقه لكن غاريت كان أشبه بمخدر قوي...

- آه، يا جينا.. إنك كالنار في دمي.

شهقت مجفلة. وقد أذهلها عنف الشوق في صوته.

- شكراً.

قالت ذلك والاحمرار يغزو وجنتيها.

لم تشعر قط من قبل بمثل هذا الشوق والشغف وكان شعوراً لم تشأ أن ينتهي.

لكن المشاعر التي تملكتها بعد ذلك نغصت عليها هناءها. أخذت أنفاسها ترتجف وقد ملأت الدموع عينيها.

نظر غاريت إليها، ثم قطب جبينه عندما رأى عينيها مغرورقتين

بالدموع التي لم تلبث أن انهمرت، فأخذ يمسحها باصبعه والاهتمام يكسو ملامحه:

ـ جينا، حبيبتي، ما خطبك؟

ـ لا شيء.

وضغطت راحتها على خده وابتسمت له.

ـ فقط لم... لم يسبق لي...

أخذت الحقيقة تتبلج في ذهنه ببطء، مالئة عينيه بالذهول.

ـ هل أنت عذراء؟

فهمست تجيب:

ـ نعم، أنا كذلك.

لم يستطع غاريت تحويل عينيه عن هذه المرأة. بالرغم من مظهرها المغري، كانت عيناها هما اللتان جذبتا انتباهه. إذ عكس عمقهما ضعفاً غلّف قلبه وجعله يشعر برغبة بالغة في حمايتها.

ولكنه فعلاً يشعر بالسرور وفي رأسه تتواتر أسئلة كثيرة، فنطق بأكثر الأسئلة أهمية لديه:

ـ جينا، لماذا لم تخبريني بأن لا خبرة لديك مع الرجال؟ ولا حتى مع خطيبها.

ـ لم يرد ذلك قط في أحاديثنا.

قالت ذلك مازحة، لكن جوابها لم يرضه:

ـ بل كان يمكنك أن تخبريني يا حبيبتي.

وضعت يدها على صدره، فوق قلبه بينما غرقت عيناها في عينيه:

ـ غاريت... لم أشأ أن يكون لهذا الأمر أهمية.

هذا الأمر مهم جداً بالنسبة إليه. وعاد يسألها: «ولكن ما الذي جعلك بمنأىً عن إغواء الرجال؟».

كان الفضول يتملكه لمعرفة الأسباب التي جعلتها تصمد ريثما

ترتبط بعلاقة جادة.

أجابته برقة: «بعد كل ما عانته أمي بسبب الرجال الذين استغلوها وانتهزوا ظروفها، أخذت تعظني بأهمية احترام الآخرين لي منذ ابتدأت أنوثتي تتكوّن. لم تكن تريد أن يستغلني رجل، وكانت تعتقد أن احترام الرجل هو أكثر أهمية من الحب، لأن الحب يضعف الشخص. لقد أحبت أمي أبي حباً حقيقياً، لكنه حطم قلبها فشعرت بأنها فقدت الحب والاحترام معاً، وكان هذا درساً لن أنساه طيلة حياتي».

لكنه شعر بأنها ما زالت تخفي أموراً أخرى غير هذا الدرس الذي تعلّمته. لأنها كلما أفاضت في الحديث، كان الحزن في عينيها يخفي المزيد منه.

ـ جينا، عليّ أن أعلم... لماذا اخترتني أنا بالذات؟

ـ لأنك رجل شريف وشهم. ومعك أشعر بنفسي.

وغصت بريقها، وارتجفت على شفتيها ابتسامة متوترة وهي تتابع: «ولأنني... لأنني أحبك».

أذهلته جينا للمرة الثانية تلك الليلة، فلم يجد ما يقوله. فأسرعت تطمئنه.

ـ غاريت، أنا لا أتوقع منك أن تبادلني هذه الكلمة. أنا فقط أردت منك أن تعرف حقيقة مشاعري لكني لا أريد منك شيئاً.

وصدقها. صحيح أن أنجيلا خدعته لهدفها الأناني، لكنه يعلم أن جينا لا تشابه بشيء زوجته الراحلة تلك، فقلبها نقي وروحها معطاءة سخية، وهذا بالضبط ما جذبه إليها ومنعه من مقاومتها.

وتقابلت عيناها البراقتان بعينيه وهي تهمس:

ـ غاريت... يجب أن نتحدث.

فابتسم لها: «لقد فعلنا ذلك لتوّنا، لقد أخبرتني بكل ما أنا بحاجة إلى معرفته».

وقبل أنفها.

ـ غداً سيكون أمامنا النهار بطوله. وستتحدث عن كل ما تريدين.

حاولت الاقتراب منه ولكنه قال:

ـ الآن، عليك أن تستريحي.. وغداً يوم آخر.

* * *

١١ ـ سر العروس

طلع الصباح أخيراً على جينا بعد ليلة قلقة بسبب الحديث الذي طال تأجيله. ولكن مستقبلها، واطمئنان قلبها وقف على ردة فعل غاريت عندما تكشف سرها الدفين.

كانت الساعة تقارب التاسعة صباحاً، عندما سمعت صوت تحركات غاريت في المطبخ وشمّت رائحة الفطور. فحثتها معدتها الفارغة على النزول إليه.

لكنها اغتسلت أولاً ثم ارتدت الثوب الذي لبسته في اليوم السابق. وعندما نظرت إلى صورتها في مرآة الحمام، رأت وجه امرأة غارقة في الحب.

لقد جازفت الليلة الماضية عندما كشفت لغاريت عن مشاعرها. وشعرت بأن أحاسيسه تماثل أحاسيسها. فقد تلمّست مدى حبه لها وشعرت بحنانه ورأت الحرارة والتفاني في عينيه.

لقد وجدت عند هذا الرجل الحب والمشاعر الجيّاشة والآن هي تريد منه أن يحترمها.

نزلت السلم متجهة إلى المطبخ، ثم استقرت عيناها طويلاً على غاريت وهو يقف أمام الموقد يقلي البيض. كان هو أيضاً قد استحم وكان شعره الرطب يحتك بياقة قميصه.

www.elromancia.com

كان، بكل بساطة، رجلاً رائعاً جذاباً للغاية.

ـ صباح الخير.

قالت ذلك وهي تتقدم لتقف بجانبه وتلامس ظهره.

ضحك لها ناظراً إليها بعينيه الزرقاوين:

ـ مرحباً. كنت أتساءل متى ستستيقظين.

وأحنى رأسه يعانقها بعطف..

ـ أنا أستيقظ في مثل هذا الوقت عادة.

قسم البيض المقلي في صحنين ثم أطفأ النار.

ـ هل أنت جائعة؟

ـ في الحقيقة، أكاد أموت جوعاً.

بعد أن ساعدته في تجهيز المائدة، جلسا يأكلان ويشربان عصير البرتقال. كان الطعام لذيذاً والحديث سهلاً مرحاً، يهيىء جواً مناسباً للحديث الذي كانت جينا ستبدأ به بعد الإفطار.

غسلا الأواني معاً، ثم أخذت تجفف يديها محاولة البحث عن أحسن طريقة لفتح الموضوع.

تسلل غاريت خلفها ووضع ذراعيه حول خصرها وهو يدفن وجهه في شعرها المسترسل. وأغمضت عينيها ومالت إلى الخلف مستمتعة بقوته.

ثم خرجا من المطبخ واتجها إلى غرفة الجلوس ووقف غاريت في منتصف الطريق ونظر في عينيها وعيناه تلمعان بمكر:

ـ تعالي إلى أحضان حبيبك.

كرهت أن تفسر هذا التقارب بينهما، وتلك العواطف الشاعرية، كما أن رفضها لم يكن سهلاً.

ـ ستعود أختك وتشيلسي في أي لحظة، كما أننا لا نعرف متى يعود أخوك.

ـ أنت محقة.

وتنهد بخيبة أمل ثم منحها ابتسامة رائعة: «ولكن لا يمكنك أن تلوميني».

تخلصت من بين ذراعيه، قائلة: «غاريت.. هناك شيء أريد أن أخبرك به».

مال برأسه جانبياً بطريقة مازحة متظاهراً بالرزانة: «يبدو الأمر جاداً».

ـ ربما هو كذلك.

وشبكت ذراعيها على صدرها.

ـ الأمر يتعلق بما حدث يوم زفافي وسبب هربي من شيلدون.

سكت لحظة ثم قال: «كنت أنتظر هذا».

فأجفلت قائلة:

ـ كنت تنتظره؟

فهز كتفيه: «اشتبهت بأن ما حصل بينك وبينه أكثر من مجرد عدم انسجام».

قطبت جبينها وهي تتساءل كيف استنتج ذلك.

ـ وكيف توصلت إلى هذا الاستنتاج؟

ـ عندما رأيتك تلك الليلة في الحانة، كان يبدو عليك الوحدة والضياع. ثم ذكرت أنك ستجلبين العار لشيلدون وأسرته ولكن لا أخالك قادرة على فعل شيء بهذه الفظاعة.

آه، ولكنها فعلت.

حوّل انتباههما صوت سيارة تقف أمام الباب. نظر غاريت من النافذة وقال: «يبدو أن تشيلسي عادت».

وأوشكت جينا أن تصرخ قنوطاً لهذا التأجيل الجديد، وقالت له بلهفة وبأس: «ولكن يجب أن نتحدث يا غاريت».

www.elromancia.com

فعاد إليها يقبل وجنتها:

ـ سنتحدث فيما بعد. أعدك بذلك.

فتمسكت بهذا التطمين.

بينما كانت ليزا وتشيلسي تدخلان من الباب الخارجي كان دوين يتبعهما حاملاً التوأمين. وهتفت تشيلسي وهي تندفع داخلة:

ـ جينا، بابا، احزرا ماذا، لقد سمحت لي عمتي ليزا بحمل جاكوب وجانيت، وقد كنت أطعمهما وأضع «بودرة» على قفاهما عندما كانت عمتي تغير لهما حفاضاتهما.

فضحكت جينا: «هذا شيء ممتع».

ونظرت إلى جانيت التي عرفتها من لون ملابسها الوردية، ثم دغدغت بطنها بإصبعها، فغطت الطفلة وجهها وأصدرت صوتاً أشبه بالمواء، فقالت جينا: «إنهما كملاكين».

فقالت ليزا بجفاء: «أثناء نومهما فقط».

وكانت خطوط الإرهاق واضحة تحت عينيها.

حملت ليزا جانيت من المهد، وناولتها بحركة تلقائية إلى جينا، ثم حملت جاكوب:

ـ نومهما يتحسن الآن، لكنني أتطلع إلى اليوم الذي ينامان فيه طوال الليل.

بينما انشغلت المرأتان بالتوأمين خرج غاريت مع دوين ليتنشقا النسائم في الشرفة الأمامية. وعندما ذهبا وجلست ليزا وجينا على الأريكة مع الطفلين، ألقت ليزا على جينا نظرة ذات معنى، وقالت:

ـ جميل أن أراكما، أنت وغاريت.. لقد مضى وقت طويل منذ سمح لامرأة بأن تدخل حياته. لقد أفاده وجودك قربه.

استوعبت جينا كلمات المرأة، وهي تهدهد الطفلة بين ذراعيها.

ـ وجوده أيضاً أفادني.

وذلك بطريقة غيرت حياتها إلى الأفضل... بطريقة يمكنها أن تغير مستقبلها وتمنحها نوعاً من الرضا.

كان جلّ ما يتمناه غاريت هو تمضية صباح الأحد مع جينا. أخذ غاريت يفكر في ذلك وهو يجلس على الشرفة ويتحدث مع دوين عن مشروع كهربائي أنجزه مؤخراً. وكأنما لم يكفه أن أخته وزوجها وطفليهما قد اقتحموا وحدتهما، حتى جاء ريلان أيضاً.

أخذ غاريت ينظر إلى أخيه وهو يخرج من شاحنته ويتقدم نحوهما من دون حيويته ومرحه المعتادين، بل متجهماً تماماً: «ماذا حدث يا ريلان؟ هل تخلّت عنك إيما».

ـ لا. أنا وإيما بأحسن حال.

ونقل ريلان نظراته بين دوين وغاريت، ثم قال باستسلام: «لدي شيء أظن أن عليكما أن ترياه».

ومد لهما المجلة التي كان يحملها. وقطب غاريت جبينه على الفور وهو يقرأ اسم المجلة المألوف. عاريات... تقريباً.

على الغلاف اللامع رأى صورة امرأة رائعة ترتدي ملابس داخلية. ونظر دوين أيضاً باهتمام. وقال غاريت بارتباك واضح: «ما هذا؟».

فتردد ريلان لحظة عندما لاحظ ردة فعله ثم قال:

ـ إنه «كاتالوغ» للملابس الداخلية كان «بو» يريه للزبائن في «ليجر بوينت» الليلة الماضية.

ذكر ذلك الرجل الذي ضايق جينا تلك الليلة، أثار غاريت، فقال يحث أخاه على قول المزيد:

ـ وماذا أيضاً؟

فتنهد ريلان بأسف بالغ: «صور جينا في الداخل».

فهز غاريت رأسه واثقاً من أنه لم يسمع أخاه جيداً: «ماذا؟».

فقال ريلان بصراحة وهو يناوله المجلة: «صور جينا في الكاتالوغ

يا غاريت، مرتدية ملابس مغربية. وقد جعل «بو» كل شخص ينظر إليها جيداً».

لم يشأ غاريت أن يصدق ريلان. لم يشأ أن يصدق كيف يمكن لجينا أن تخفي عنه شيئاً كهذا. وأخذ يقلب صفحات المجلة حتى تأكد فعلاً من أنها تحتوي على صور لجينا في أوضاع مغرية، مرتدية ملابس داخلية مغرية، وتبدو أكثر شبهاً ببنات الهوى منها بتلك الفتاة الصادقة البريئة التي سمح لها بدخول بيته.

وأدرك أنه لم يعرف هذه المرأة على الإطلاق. وجاشت نفسه وهي تذكره بخداع المرأة الأخرى، والاضطراب الذي أحدثته في حياته. وشعر أنه مغفل مخدوع قد وقع في الشرك بالطريقة نفسها التي استخدمتها أنجيلا.

قال وقد أطبق فكه بغضب بالغ: «من أين أحضر «بو»... هذه؟».

ـ لقد فكرت في أنك تريد أن تعلم ذلك، فأقنعت «بو» بأن يخبرني بذلك.

جواب ريلان أكّد لغاريت بأنه لجأ إلى القوة لكي يحظى بجواب.

ـ قال إنه كان في بيت امرأة ما مساء الجمعة، فرأى الكاتالوغ ملقى على الطاولة فأخذ يتصفحه متفرجاً...

رفع غاريت يده يسكته بعد أن فهم البقية، وقال ريلان بخشونة ولهجة ذات معنى: «لا».

أدرك الآن ما كانت جينا تحاول أن تخبره به الليلة الماضية، وهذا الصباح أيضاً، ولكن كان عليها أن تخبره شيئاً كهذا عن ماضيها منذ البداية.. وأكثر ما ضايقه هو أنها لم تثق به إلى حد تطلعه فيه على الحقيقة.

والآن لم يستطع أن يمنع نفسه من أن يتساءل عما إذا كانت تسعى لكي يبقيها محترمة ويستر ماضيها الشائن.

وشخر ساخراً من هذه الفكرة، وقد شعر مجدداً بأنه مغفل.

قال ريلان وهو يضع يده بعطف على ذراع أخيه: «آسف يا غاريت. ولكن إذا أنا لم أخبرك، فستعرف ذلك من شخص آخر. الجميع الآن يتحدث عن جينا والكاتالوغ وعنك. لقد وافقتني إيما على أن أريك هذه وننتهي من الأمر».

قدّر غاريت لأخيه وفاءه هذا، لكنه شعر بصعوبة في تقبّل نفاق جينا، لاسيما وأنه لن يكون بينهما ذلك الصدق الذي يريده في علاقتهما. وما أثار غضبه أيضاً هو أن البلدة بأسرها عرفت بمهنة جينا الجانبية كعارضة أزياء ملابس داخلية، قبل أن يعرف هو. ولا شك أن الأقاويل ستطاله وتطال أسرته في أيام قليلة.

شتم بصوت منخفض ثم وقف: «أرجو المعذرة منكما. أظن أن لدينا أنا وجينا ما نتحدث عنه».

وكان صوته هادئاً، رغم توتره البالغ.

لف المجلة في يده وتوجه إلى الداخل، ثم توقف فجأة عندما رأى جينا وهي تحدو بغناء عذب لأحد الطفلين، وقد بدا وجهها بالغ الرقة رائع الجمال. رفعت بصرها عندما انغلق الباب، وابتسمت له بطريقة جعلته يتمنى لو أنه لا يحمل بيده هذه المجلة اللعينة.

ـ جينا، هل يمكنني أن أتحدث معك على انفراد؟

لهجته اللاذعة جعلت أخته تنظر إليه بفضول، حتى أنها أثارت انتباه تشيلسي، بينما بدت جينا في البداية مجفلة ثم قلقة. وضعت الطفلة التي كانت تحملها في حجر تشيلسي، ثم تبعت غاريت صامتة إلى الطابق الأعلى.

لم يضيّع الوقت في مواجهتها، فكلما أسرعا في إنهاء هذا الحديث المزعج، كلما تمكنت من الرحيل بسرعة، وكان شبه متأكد من أن انكشاف أمرها أمام الناس سيدفعها إلى مغادرة دانبي.

وضع المجلة أمامها قائلاً: «هل يهمك أن تفسري هذا؟».

تنفست بحدة، ورفعت يدها إلى صدرها بينما تنقلّت عيناها من عنوان المجلة إليه. لكنها لم تنكر الحقيقة الواضحة أمامها: «غاريت... هذا ما حاولت أن أتحدث معك عنه قبل الآن».

ـ ألا تظنين أنه شيء استحق أن أعرفه قبل الآن؟

ودون أن يمنحها فرصة للجواب، فتح المجلة على صورتها وهي ترتدي قميص نوم مكشوف الصدر وقصيراً جداً.

ـ كان أفضل كثيراً لو علمت مسبقاً أن المرأة التي أخرج معها كانت تقف للتصوير بثياب النوم وفي أوضاع غير محتشمة ثم تعرض صورها على الناس.

بدا السخط واضحاً في صوته.

أجفلت بشكل واضح. واحمرت وجنتاها، فصعب عليه أن يصدق أن بإمكانها أن تحمر خجلاً بعد وقوفها أمام الكاميرا في مثل تلك الأوضاع المغرية. ووجد نفسه حائراً بين أن يتمسك بهذه المرأة العذبة السخية العواطف، أو يطرد المرأة التي كانتها قبل أن يتعرف إليها. لم يكن لديه فكرة عن أيهما هي جينا الحقيقية.

ـ الحق معك.

همست بذلك توافقه وقد بدا صوتها مختنقاً بالمشاعر. لكن المحيَّر فيها أنها أبقت رأسها مرفوعاً.

ـ كان يجب أن أخبرك منذ أسابيع عن الكاتالوغ وأنا آسفة لأنك علمت بالأمر بهذه الطريقة. لم أقصد أن أؤذيك أو أؤذي أسرتك.

لم تُصب بانهيار، ولا صرخت باكية كما كان يتوقع. لم تتضرع إليه أن يصفح عنها، كما أنها لم تعتذر عما فعلته في ماضيها، ولو لكي تجعله يضعف ويلين.

أطبق أسنانه وقوّى أعصابه رافضاً أن يسمح لنفسه بالتراخي. خاصة

بعدما اختبره من قبل عن حيل بعض النساء في سبيل أهدافهن ومصالحهن.

ـ أنا واثق من أن هذه بداية فضيحة في دانبي، وآخر شيء أريده بعد أنجيلا هو امرأة لديها هذه الأنواع من المفاجآت الكامنة في ماضيها. ولا أودّ أن تتناولني الألسن والأقاويل أو تمسّ بأسرتي.

ألقى بالمجلة على الطاولة، وإذا بها تنفتح، ويا للسخرية على صفحة تبدو فيها جينا بسروال قصير من الحرير.

ـ لماذا لم تخبريني بذلك قبل الآن، يا جينا؟

أطلقت ضحكة جافة ولكن لم يبدُ في عينيها أي هزل.

ـ أنا لم أخبر أحداً، يا غاريت. ذلك لأن عرض الملابس الداخلية ليس شيئاً يمكنني أن أفتخر به.

حدق إليها لحظة طويلة.

ـ لماذا فعلت ذلك إذن؟

ـ لأنه لم يكن لديّ خيار، حينذاك.

كرهت الاستنكار الذي بدا على وجهه وفي تصلب جسمه. كرهت تلك النظرة في عينيه. كانت هذه بالضبط ردة الفعل التي خشيتها، لكنها مع ذلك لم تستطع أن تلومه لاستيائه وغضبه منها. كل ما يمكنها فعله هو محاولة شرح أسبابها.

ـ عندما ماتت أمي أصبحت المسؤولة عن فواتير العلاج الذي خضعت له لمعالجتها من داء الرئة. ولم يكن لدي أي طريقة لسدادها، فاتخذت مهنة عرض الأزياء لاكتساب مزيد من المال. عرضت بعض تصميمات الملابس الداخلية، عالمة بأنها قد تنشر في المستقبل. ولكن كل ما فكرت فيه حينذاك، هو التخلص من ديوني.

لقد ضحّت باحترامها لأجل تلك النقود وهي الآن واثقة من أن ذلك أفقدها حبها الحقيقي أيضاً.

لم يقل شيئاً، وإنما أخذ يتأملها وقد توتر فمه باستياء. وسرت البرودة في عروقها.

أخذت نفساً عميقاً، ثم تابعت رغبة منها في أن يعرف كل شيء.

ـ حدث ذلك قبل عام تقريباً من معرفتي بشيلدون. وكنت أظن ذلك قد أصبح جزءاً من الماضي، وشيئاً انتهى وأصبح منسياً. وكان تصميمنا أنا وشيلدون على الزواج مرتكزاً بمعظمه على أسباب عملية، كما تعلم. فهو يريد زوجة لائقة مهذبة في المجتمع، وأنا أردت ذلك النوع من الاحترام الذي أصرّت أمي دوماً على أنه أهم شيء في العلاقة.

كانت أمها على حق في شيء واحد، وهو أن الحب يصحبه تحطم القلب. وحالياً كان الألم عميقاً بحيث استهلك كل القوة التي بذلتها لتمنع نفسها من الاستسلام لذاك الضغط الهائل في صدرها ووخز المشاعر خلف عينيها. وفيما بعد، عندما تصبح وحدها، ستستسلم لأحزانها على فقدان غاريت، الشخص الوحيد الذي كانت تعتقد أنه سيتفهم دوافعها وأسبابها. ولربما فعل ذلك لو وثقت به وأفضت إليه بالحقيقة قبل الآن... لو أنها لم تدع مخاوفها تعيق طريقها.

ـ ماذا حدث يوم زفافك يا جينا؟

سألها هذا بصوت خشن شارد، إنما فضولي بشكل واضح.

جلست على حافة السرير، وألقت نظرة على صورتها... كان ذلك منذ وقت طويل ومع ذلك ما زالت تتذكر كيف أخذت الصورة وكأنه بالأمس.

ـ وقعت المجلة في يد صديقة هجرها شيلدون من زمن بعيد، وعندما ابتدأ الاحتفال في الكنيسة، دخلت وقاطعت الكاهن الذي كان يعقد القران، وفتحت المجلة وعرضت صوري على المصلين. تملكني الذعر، وكذلك أسرته، بسبب الفضيحة التي أثارتها وشعرت بالمذلة والعار، فقمت بالشيء الوحيد الذي استطعت التفكير فيه... هربت..

ولكن يبدو أنني لن أتمكن الآن من الهرب بعيداً بما يكفي.

أغلقت المجلة ودفعتها بعيداً ثم أرغمت نفسها على مواجهة نظرات غاريت الثاقبة.

ـ بطريقة ما، قدمت حبيبة شيلدون السابقة خدمة لكلينا. كان الزواج منه غلطة بالنسبة إليّ. وأنا أدرك هذا الآن.

قالت ذلك برقة. ولأنها الآن تعرف ما هو الحب، أصبحت ترفض ما هو أقل منه.

ـ كنت سأصبح تعسة وكذلك شيلدون.

شبك ذراعيه على صدره العريض وقد بان التصلب والعناد عليه.

ـ وما هو دوري أنا في الأمر؟

قالت متوجسة: «ماذا تعني؟».

ـ هل تتوقعين مني أن أتزوجك لأحافظ على كرامتك؟

كانت كلماته مغلفة بالمرارة. فصدمتها وكأنها أصيبت بضربة على رأسها، فقد كان ما يعنيه واضحاً جداً. فهو يعتقد بأنها تقرّبت منه ومن عائلته محاولة خداعه وإيقاعه في شركها كما فعلت معه أنجيلا منذ سنوات. وفي تلك اللحظة، تلاشى كل أمل لديها في مسامحته إيّاها.

ووقفت مستجمعة شتات كرامتها. فهي لن تأخذ منه شيئاً لا يريد أن يقدمه لها برضاه وكامل حريته.

ـ لست مديناً لي بأي شيء، يا غاريت، لا شيء أبداً. وسأطلب من ليزا أن تأخذني إلى بيتي.

اجتازت الغرفة متجهة إلى الباب المغلق، متمنية لو يناديها لكي يتمكنا من مناقشة هذه المشكلة. لكن صمته أوضح بجلاء أنه يريد منها أن ترحل. إذ بالنسبة إليه، لم يعد هناك ما يستدعي النقاش.

ولكن قبل أن تخرج من حياته، كان هناك شيء تريد أن تقوله له، وتريد منه أن يصغي إليه. وقفت ويدها على مقبض الباب ونظرت إلى

الخلف، داعية الله أن يساعدها على التماسك عدة لحظات أخرى.

- غاريت، أنا أعلم أنك لا تدري ما ينبغي أن تصدقه حالياً، لكن هناك حقيقة واحدة في هذا كله وهي أنني كنت أعني ما قلته لك الليلة الماضية أنني أحببتك.

بقيت ملامحه جامدة مبهمة، وأدركت جينا أنها فقدت غاريت قبل أن تمتلكه حقاً. كل ذلك بسبب غلطة ماضية لم تستطع إصلاحها وحدها. وعلى كل حال كيف تتوقع منه أن يرضى بماضيها وما فعلته، بينما لم تستطع هي نفسها أن ترضى بذلك.

* * *

تنهد غاريت بقنوط وهو يحك ذقنه، غير قادر على التركيز على عمله المنتشر أمامه على المكتب. لقد مضى أسبوع تقريباً منذ ترك جينا تخرج من بيته.. ومن حياته.. ومنذ ذلك الحين لم يرها ولم يسمع عن أخبارها. أسبوع مؤلم من الأقاويل عن عرض جينا لأزياء الملابس الداخلية، وعلاقته بها.

كان موضوع كاتالوغ جينا ساخناً للغاية وقد انتشر بسرعة فائقة، ليموت بعدها بشكل أسرع مما توقعه غاريت. دام عدة أيام فقط. وما إن تلاشت فضيحة جينا والصدمة التي أحدثتها، حتى عاد كل شيء إلى طبيعته...

كل شيء ما عدا حياة غاريت. لم يبق شيء كما كان منذ رحلت. لا تشيلسي ولا مكتبه الخالي الهادىء ولا قلبه....

- إلى متى تعتزم البقاء كئيباً بهذا الشكل؟

حملق غاريت في أخيه وهو يدخل إلى مكتبه بعد نهار من العمل، ثم أجاب: «أنا لست كئيباً».

فوافقه ريلان ضاحكاً:

- هذا ليس من عادتك. أنت لا تبدو كئيباً فقط، بل سيء المزاج

أيضاً وذلك منذ افتراقك عن جينا. لِمَ لا تتصالحان؟.

ونظر غاريت إلى أخيه وقال بجفاء: «ما كانت جينا تخفيه عني لا يسهل الصفح عنه».

- أنا أوافقك على أن ما فعلته جينا كان خطأ وكان عليها أن تخبرك بالحقيقة منذ البداية.

وتنهد ريلان وهو يمرر أصابعه في شعره.

- أنا أعلم بأنني كنت من نقل ذلك الخبر السيء، ولكن ألم يحدث لك أن اقترفت غلطة ندمت عليها فيما بعد؟ هي ما زالت قريبة منك، يا غاريت، ولم يفت الأوان بعد. بإمكانها أن تكون لك كما تريد أنت أن تكون، إذا عدت إليها. وإذا لم تستطع أن تصفح عنها، فحاول على الأقل، أن تعقد معها علاقة ودية لا يكون فيها أي احراج للأسرة.

وبعد هذه النصيحة، غادر أخوه المكتب.

عاد غاريت ليتهالك على مقعده، شاعراً بمزيج من القنوط والتردد. كان يعلم أن لا مفرّ له من الالتقاء مصادفة بجينا أحياناً، فهي ما زالت في دانبي. وهذا بالذات أدهشه بعد أن توقع منها تماماً أن تنتقل إلى مكان آخر هرباً من الفضيحة. ربما هو بحاجة إلى مقابلتها مرة أخيرة ليتمكنا من التخلص من الاستياء الذي بينهما ثم يفترقا بعد ذلك كل في طريقه.

ترك مكتبه باكراً، وفي طريقه إلى إحضار تشيلسي، قرر أن يتوقف عند «إيلاڤي». حيته المرأة العجوز عند الباب ودعته للدخول.

رمقته «إيلاڤي» من رأسه حتى أخمص قدميه بنظرة عتاب، وهي تقول: «أظنك جئت لترى جينا؟».

طأطأ رأسه شاعراً بالخجل وهو شعور لا يعرف كيف أثارته في نفسه:

- نعم يا سيدتي.

- آن الأوان لذلك.

تمتمت بذلك بصوت منخفض أمكن لغاريت أن يسمعه، ثم أشارت إلى خلف المنزل قائلة:

- إنها في الفناء الخلفي.

دخل المطبخ وإذا به يقف فجأة عند نافذة تطل على الفناء الخلفي. لمح جينا في الخارج راكعة على العشب تغرس نبتة في الحديقة المحيطة بالفناء.

توقع أن يتجدد غضبه لدى رؤيتها، متذكراً خداعها وكذبها، لكنه بدلاً من ذلك، شعر بحنين بالغ أنبأه بأنه قد صفح عنها منذ وقت طويل، لكنه كان فقط متمسكاً بالعناد ولا يريد الاعتراف بذلك. كما أن كبرياءه الجريحة واضطرابه منعاه من أن يتحقق من شعوره الحقيقي.

وقف لحظة طويلة يراقبها بصمت. لم يكن وقوفها أمام الكاميرا بالثياب الداخلية شيئاً بالغ الأهمية، لكن الأهم هو عدم ثقتها به وعدم اطلاعه على الحقيقة قبل أن يسمح لمشاعره بأن تتعلق بها.

لقد شعر في البداية بأنها احتالت عليه وغدرت به بإخفائها ذلك السرّ عنه، ولكن كانت هناك حقيقة واحدة وهي أنه في مطلق الأحوال كان سيقع في غرام جينا رغم ماضيها.. فذنبها الوحيد هو أنها انتظرت كل هذا الوقت لتخبره بالحقيقة، وقد عاقبها هو بدون وجه حق على غلطتها هذه، فقد أدرك الآن أن صمتها ناشىء عن عدم الإطمئنان والخوف.. في هذه اللحظة تملكه مزيج من الندم والمشاعر القوية التي عجز عن إنكارها. كيف يمكنه أن يتوقع من جينا أن تصدقه وهو لم يمنحها سبباً يجعلها تعتقد أنه سيتقبل ماضياً لا يمكنها أن تمحوه؟ ربما ظنت أن تصرفه لن يكون أفضل من تصرف شيلدون الذي تركها ترحل، والذي جعلها تظن أن سمعته أهم بكثير من علاقته بها وهي المرأة الصادقة البريئة العفيفة...

لقد أحبت غاريت رغم رفضه هذا الحب بصمت. ويمكنها أن تصبح زوجة كاملة محترمة له... إذا هي صفحت عنه لسوء حكمه عليها.

وإذ كان عليه أن يحاول إصلاح غلطته، خرج متوجهاً إلى حيث كانت تعتني بالأزهار.. كانت أشعة الشمس تحيط بها كهالة دافئة متوهجة كالذهب. ورغم المحنة المؤلمة التي مرت بها في الأيام الماضية، كان يحيط بها جوّ من السلام والرضا جذبه نحوها. وعند اقترابه منها تملكه العجب لشجاعتها وقوتها اللتين مكّنتاها من البقاء في هذه المدينة الصغيرة حيث يعرف الجميع بأمر كاتالوغ الأزياء ذاك. بقيت لتواجه ذلك الخوف البالغ بينما كان من الأسهل عليها أن ترحل وتتجنب الشائعات والأقاويل.

كانت محيّرة حقاً، وقد احترم فيها العزم والثبات. لقد احترمها حقاً.

وقف خلفها بالضبط ملقياً بظله عليها. نظرت من فوق كتفها بابتسامة سرعان ما تحوّلت إلى دهشة. وهتفت بصوت لاهث غير واثق: «غاريت».

فقال بصوت منخفض هادىء رغم سرعة خفقات قلبه: «مرحباً يا جينا. كيف حالك؟».

- أنا بخير.

ووقفت تخلع قفازي العمل وتنفض التراب عن ركبتيها:

استقرت نظرات غاريت طويلاً على ساقيها، ثم انتقلت إلى وجهها عندما وقفت أخيراً. وقال:

- هل يمكنني التحدث إليك؟

بدا الحذر على ملامحها، ومضت لحظة ظن فيها أنها سترفض، وما كان ليلومها لو فعلت، نظراً لمعاملته لها في آخر مرة التقيا فيها. لكنها

قالت بابتسامة مهذبة:

ـ بكل تأكيد. أتمانع أن نذهب إلى الشرفة الخلفية؟ لقد أمضيت في الشمس ساعات ما جعلني أشعر بالدوار..

أومأ وسار بجانبها نحو الشرفة.

كان وجهها متوهجاً من حرارة هذا اليوم الصيفي. وقطرات خفيفة من العرق تتلألأ فوق حاجبيها. وكانت عيناها متألقتين، لكن هذا التحفظ الذي لاحظه جعله متوتراً قليلاً وهو يتساءل عما إذا كان انتظر طويلاً قبل أن يعود إلى رشده. التفكير في أنه خسر جينا إلى الأبد جعله يشعر بالغثيان.

حدقت إليه تنتظر منه أن يقول ما يريد. وتنحنح ثم قال: «كنت أتوقع منك أن تغادري دانيي بعد ظهور المجلة».

قال ذلك حاقناً في لهجته شيئاً من الهزل الجاف. وبقيت ملامحها جادة تماماً وهي تجيب:

ـ فكرت في ذلك فعلاً.

فسألها ليستوضح منها سبب بقائها.

ـ وما الذي منعك من الرحيل؟

ـ لقد استنتجت أنني لن أستطيع الهرب من الماضي في كل مرة يظهر فيها كاتالوغ الأزياء ذاك في مكان ما.

وترددت لحظة، ثم بدت على فمها ابتسامة مرتجفة:

ـ وأدركت أنني إذا رحلت، فسوف تتأجج الأقاويل هنا وتُلطّخ علاقتنا وهذا ما لا أسمح بحدوثه.

ذهل غاريت لحظة لما فعلته لأجله بدون أنانية منها. وكذلك لعمق مشاعرها ووفائها. بينما كانت هي تتابع.

ـ لا يمكنني أن أدع ماضيّ يهدّد مستقبلي أو سعادتي أكثر من ذلك. كانت أمي دوماً تنصحني بألاّ أفقد احترام الآخرين لي. لكنني أدركت

أنني لكي أكون محترمة، عليّ أن أحترم نفسي أولاً. وأنا كذلك. هذه هي أنا، يا غاريت بأخطائي وعيوبي وكل شيء آخر، وأرجو أن يتقبلني الجميع هنا في دانيي بصفتي جينا فيليبس الإنسان وليس جينا عارضة أزياء الملابس الداخلية.

ونظراً للسرعة التي همدت فيها تلك الأقاويل، بدا أنها في طريقها لبلوغ ذلك الهدف. وقال:

ـ أنا مدين لك بالاعتذار، يا جينا.

فقطبت جبينها: «لماذا؟».

مد يده فوق المنضدة ليضعها على يدها. شعر بها تجفل لهذه اللمسة غير المنتظرة، لكنه لم يقطع هذا الاتصال إذ كان بأمس الحاجة إليه. وقال: «كنت مخطئاً عندما اعتقدت أن ما جعلك تعتبرين ماضيك سراً، هو شيء غير نظيف، وكذلك حمايتك لي ولتشيلسي من الأقاويل».

عضت شفتها وترقرقت الدموع في عينيها.

ـ لقد فهمتني حقاً. لم أقصد قط أن أؤذي أحداً.

ـ أنا أعلم ذلك الآن.

رفعت يدها تحت يده ببطء فاشتبكت أصابعهما معاً في حين لم تفارق عيناها عينيه.

ـ أنا لم أفكر قط في أن أخدعك يا غاريت، إخفاء ماضيّ كان نابعاً من غريزة صيانة الذات، تماماً كما عملت أنت على الاحتفاظ بحقيقة أبوّتك سراً عن تشيلسي... ذلك لتصون نفسك كما تصونها هي.

فهم المقارنة ووافقها عليها. وابتلع غصة في حلقه.

ـ لقد تركت ما حدث مع أنجيلا يعميني ويخفي عني روعة العلاقة مع المرأة المناسبة. معك أنت.

ـ لا أستطيع أن أغيّر المستقبل، يا غاريت.

همست بذلك بصوت مفعم بالمشاعر. صوت يتوسل إليه أن يقبل بشيء هو جزء منها إلى الأبد.

ـ وأنا أيضاً لا أستطيع أن أغير ماضيّ، وأظن أن هذا يجعلنا متساويين.

وابتسم شاعراً بتفاؤل غاب عنه في الأيام الماضية.

ـ لدينا جميعنا ما نندم عليه، وأشياء ما كنا لنفعلها لو كان لدينا الخيار. لو استطعت إعادة عقارب الساعة إلى الوراء، لما سمحت لك بالخروج من حياتي في ذلك اليوم. كل ما يمكننا فعله هو قبول أخطائنا والسير قدماً. وأكبر خطأ اقترفته هو أنني لم أصدق حبك.

فقالت وعيناها تلمعان: «أنا أحبك حقاً، أكثر مما ظننت أن بإمكاني أن أحب رجلاً».

ـ وأنا أحبك أيضاً.

ودار حول المنضدة يجذبها إليه، فوقفت تواجهه حتى كادا يلتصقان.

ـ أنا متلهف إلى إصلاح الأمور بيننا وبلسمة أي جرح سببته في قلبك.

ـ ها قد فعلت ذلك.

وضغطت على وجنته براحتها.

ـ أنت تملئين حياتي ضحكاً وحباً يا جينا، وأريد منك أن تأتي معي إلى بيتي، الذي هو بيتك. أريد أن أجعلك سيدة محترمة. هذا إذا قبلت بي في حياتك.

اتسعت عيناها مصعوقة، ثم ملأتها البهجة فجأة: «أواه.. يا غاريت!».

وأحاطت عنقه بذراعيها تحتضنه بشدة، وبادلها عناقها المحموم وهو يتأوه رضاءً وبهجة.

وسرعان ما انتهت هذه اللحظة الحميمة، وتراجعت جينا، ولحسن الحظ أن الذراع التي أحاط بها خصرها بقيت مكانها. لم يكن يريد منها أن تذهب قبل أن يتأكد من أنها ستصبح له حقاً. فقال وهو يحدق في عينيها:

ـ لم تجيبي بعد عن سؤالي يا حبيبتي. هل ستقولين (نعم) فتجعليني مع تشيلسي أسعد السعداء؟ هل تتزوجينني؟

وهذه المرة لم تتردد.

ـ نعم، يا غاريت بلاكويل. سأتزوجك.

وفي تلك اللحظة البهيجة، تحققت أماني جينا كلها.